فلسفة

إدغار موران

المعرفة - الجهل - الغموض

ترجمة:
لطفي السيد منصور

دار الفكر

المعرفة ـ الجهل ـ الغموض

إدغار موران

ترجمة: لطفي السيد منصور

العنوان بالفرنسية:

Connaissance, Ignorance, Mystère

ترجمة عنوان الكتاب بالإنكليزية:

knowledge, Ignorance, Mystery

By Edgar Morin

Translated by Lotfy Alsayid Mansour

الطبعة الأولى: نوفمبر ـ تشرين الثاني، 2025 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب *المعرفة ـ الجهل ـ الغموض*، بالاتفاق مع مكتبة آرثيم فايارد، باريس ـ فرنسا.

This Book *Connaissance, Ignorance, Mystère* was translated & published under agreement with LIBRAIRIE ARTHEME FAYARD, Paris - France.

Copyright©Librairie ARTHEME FAYARD, 2017

Arabic copyright@Dar Al-Rafidain2025

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي

بيروت ـ لبنان، الحمرا / شارع المقدسي

تلفون: 9611345683+/9647811005860+

www.daralrafidain.com
Info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 749 - 42 - 6

إدغار موران

المعرفة - الجهل - الغموض

ترجمة:

لطفي السيد منصور

www.daralrafidain.com

الفهرس

مقدمة ــ 7
الفصل الأول: المعرفة الجاهلة ــــــــــــــــــــــــــــ 15
الفصل الثاني: الواقع ــــــــــــــــــــــــــــــــــ 23
الفصل الثالث: كوننا ــــــــــــــــــــــــــــــــــ 37
الفصل الرابع: الحياة، ثورة في التطور ــــــــــــــــــ 53
الفصل الخامس: الإبداع الحي ــــــــــــــــــــــــــ 67
الفصل السادس: البشر الذين يجهلون أنفسهم ــــــــــ 79
الفصل السابع: الدماغ والعقل ــــــــــــــــــــــــ 87
الفصل الثامن: ما بعد الإنسانية ــــــــــــــــــــــ 117
الخاتمة ــ 129

مقدمة

وتزداد معرفته حتى يبقى بلا علم.

(يوحنا الصليب)

مَنْ زاد علمه زاد جهله.

(فريدريش شليغل)

لقد أبحرت إمبراطورية المعرفة، إنها تتجه نحو الغموض والظلام.

(مانويل دو ديغيز)

نحن لا نزال نعيش في مرحلة الطفولة المبكرة للجنس البشري، وكل آفاق علم الأحياء الجزيئي والحمض النووي وعلم الكونيات بدأت تتفتح، نحن مجرد أطفال نبحث عن إجابات، ومع توسع جزيرة المعرفة، تتوسع شواطئ جهلنا أيضًا.

(چون ويلر)

لقد حان الوقت؛ حيث يكون الشيء الوحيد الذي سيستدعينا هو ما بقي غير مفهوم بالنسبة لنا!

(رينيه شار)

الضفدع في قاع البئر لا يعرف أعالي البحار.

(حكمة يابانية)

الأشياء ليست غامضة؛ لأنها قد تكون علامات على شيء آخر، بل لأنها كذلك.

(فلاديمير جانكيليفيتش)

إن أعلى هدف لإبداعنا اليوم يشير إلينا إلى ما لا يمكن تصوره، والذي يجب علينا الآن أن نتعلم كيف نعيش معه بأكثر الطرق إنسانية وإنجازًا قدر الإمكان.

(باتريك شاموازو)

إن للعلوم طرفين يلمس كل منهما الآخر؛ الأول هو الجهل الطبيعي المحض الذي يوجد فيه جميع البشر عند الولادة. أما الطرف الآخر فهو ذلك الذي تصل إليه النفوس العظيمة، التي بعد أن مرَّت بكل ما يعرفه الرجال، تجد أنها لا تعرف شيئًا، وتجد نفسها في ذلك الجهل الذي بدأت منه: ولكنه جهل مكتسب يعرف نفسه.

(بليز باسكال)

الإنسان الذي لا يتأمل يعيش في العمى، والإنسان الذي يتأمل يعيش في الظلام.

(ڤيكتور هوغو)

أحب أن أعرف.

لقد احتفظت بفضول الطفولة، وأسئلة المراهقة، وتمكنت، في سن السابعة والعشرين، من التساؤل في كتابي «الإنسان والموت»، عمّا يشكّل، في الحالة الإنسانية، أكبر مشكلة ويتطلب ثقافة متعددة التخصصات؛

وعندما بلغت الثلاثين من عمري، كنت محظوظًا؛ لأنني انضممت إلى المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي، مما سمح لي بإشباع فضولي وأسئلتي، والحمد لله على الحرية التي منحني إياها!

لا أزال أشعر بشدة بلذة الاكتشافات والإيضاحات، ولم أتوقف أبدًا عن قراءة المجلات العلمية والأعمال التي تخبرني بالتقدم الهائل في المعرفة.

ولكن سرعان ما أدركت أن العلاقة بين المعرفة والواقع تطرح المشكلة التي أثارها منذ زمن بعيد المفكرون الهنود والصينيون واليونانيون، وأثارها (كانط) مرة أخرى، وأثارها اليوم علم الدماغ وفلسفة المعرفة: ما الذي نعرفه، وما الذي يمكننا أن نعرفه عن الواقع؟

إن المعرفة التي تصبح إشكالية تجعل الواقع نفسه إشكاليًا، وهو ما يجعل العقل الذي ينتج المعرفة إشكاليًا بالقدر نفسه، وهو ما يجعل الدماغ الذي ينتج العقل اليوم غامضًا.

وهكذا نصل إلى العلاقة الدائرية المترابطة بين الواقع والمعرفة والعقل والدماغ. نكتشف مجهولًا في كل واحد منهم، ومن المفارقات أن المجهول يوجد داخل المعروف والعارف. بمعنى آخر، كل ما يوضح يصبح غامضًا من دون أن يتوقف عن الإيضاح.

ولكن هذا لم يطفئ عطشي للمعرفة، بل وسعه وكبره من أجل محاولة معرفة المعرفة نفسها، وإمكاناتها، وحدودها، ومخاطر الخطأ والوهم، والسعي إلى وسائل تطوير المعرفة، ذات الصلة قدر الإمكان، مما دفعني إلى كتابة كتاب «المنهج».

لا أزال أشعر بلذة الاكتشافات والإيضاحات، سواء فيما يتعلق

بالكون أو بالتفاصيل الصغيرة للحياة اليومية. لقد أثار هذا بداخلي، بشكل متزايد، الدهشة ـ أحيانًا الدهشة، وأحيانًا أخرى الدوار ـ كوني على قيد الحياة، أمشي، وكوني تحت الشمس، وأشاهد القمر يرتفع في سماء الليل، أتأمل مجموعات النجوم، الصغيرة في عينيَّ، لكنها هائلة حسب معرفتي.

كل ما هو واضح، وكل ما هو معروف يصبح دهشةً وغموضًا.

تزداد دهشتي مع كل نظرة، مع كل إحساس. إنه ليس فقط غموض الحياة، والوجود، والواقع، بل هو أيضًا رؤوس المارة في الشارع، والأشجار، والحيوانات.

أنا مندهش من البذور التي تم جمعها معًا، محمية مثل الأطفال داخل جسم البطيخ، أو بذور العنب، أو اللوز المغلق عليه داخل نواة الخوخ المدرعة.

لدي شعور قوي بأن ما هو غير مرئي مختبئ في المرئي.

إنني أشعر بما شعرت به عقول كثيرة في حضارات كثيرة، وهو الشعور بحقيقة سرية، يجب البحث عنها بإصرار وزهد، حتى تأتي المبادرة التي تمنحنا في النهاية إمكانية الوصول إلى الحقيقة الباطنية. لكنني توصلت إلى إدراك أن هذه الحقيقة ستظل مخفية إلى الأبد عن وعينا. إن الذين يعتقدون أنهم قد وصلوا إلى هذا الأمر يخدعون أنفسهم بكلمة جوهرية تنير لهم الطريق. وبالإضافة إلى ذلك، فإنني أشعر بالاستغراب دائمًا عندما أسمع أولئك الذين يلوحون بالكلمة التي تبدّد كل الظلام: اللّٰه، المادة، الروح، العقل، الحتمية.

أنا من أولئك الذين يدهشهم الكون، ولكنني لست من أولئك الذين يجدون فيه معنى أو يجدون له تفسيرًا منطقيًّا.

عندما يُسحر (آينشتاين) العظيم بالعقل المتفوق الذي يحكم الكون، لا يسعني إلا أن أفكر في أن هذا العقل المتفوق مختلط بالجنون المفرط، مع فناء المادة المضادة بالمادة، واصطدامات وانفجارات النجوم، والتفكك المتواصل لكل ما هو مدمج، من دون أن ننسى الكوارث التي عرفها تاريخ الحياة، وإذا انتقلنا إلى البشر، وانقراض الحضارات، والإبادة الثقافية، وموجات المجازر والهذيان، والقسوة من كل نوع!

لقد أسقط عقل العالِم نفسه على العالم وأدرجه فيه. وبالمثل، فإن أولئك الذين يؤمنون بـ«روح الكون» يسقطون روحهم على الكون ويدمجونها فيه.

إن أولئك الذين يسقطون عقولهم على الكون يميلون إلى اعتبار اللاعقلانية وهمًا من الجهلة، وبالتالي يصبحون غير عقلانيين في الوهم العقلاني، ويميلون إلى أن يصبحوا عميانًا عن لاعقلانية العالم.

كلما رأينا ما هو عقلاني، كان لزامًا علينا أن نرى أيضًا ما يفلت من العقل.

يمكننا أن نتعجب من النظام المتناغم للقوانين الكونية، لكننا نتجاهل حقيقة أن كوننا عبارة عن لعبة متعددة من النظام والفوضى. وكما أكد (هيراقليطس) بشكل حاسم قبل خمسة قرون من الميلاد، فإن الانسجام والتنافر يتحدان، ما هو في حالة انسجام وما هو متنافر يندمجان معًا، وإذا لم يكن الصراع هو الأب الوحيد لكل الأشياء؛ لأنه لا ينفصل عن الاتحاد، فإن (إيروس) و(ثاناتوس) يكونان في تكاملية وعداء دائمين في آن.

نعم، هناك قوى تنظيمية غير عادية في كوننا، من الذرة إلى المجرة. ولكن هناك قوى مفسدة للتنظيم غير عادية أيضًا، وكان المبدأ الثاني للديناميكا الحرارية بمثابة كاشف لها، لا يمكن للدهشة أن تحجب حقيقة أن كوننا يُفعله الموت والدمار ويعمل لصالحهما أيضًا.

وتبعًا لـ(تيلار دو شاردان) رأى البعض في تاريخ الكون تناميًا للتعقيد نحو أشكال أعلى من العقل. ومع ذلك، فإن هذا التنامي يعتبر هامشيًا على كوكب صغير مثل كوكب الأرض، وعرضة للتراجع والتقلبات المختلفة. وفي الوقت نفسه، وتحت تأثير قوة تُسمى الآن الطاقة المظلمة، يتحرك الكون نحو التشتت والموت.

لا ينبغي لنا أن نجمّل الكون على الرغم من روعته، لا ينبغي لنا أن نعقلنه أيضًا، على الرغم من اتساقه، ودعونا نرى أيضًا ما يفلت من عقولنا. يعتقد البعض أنهم وجدوا سرّ الكون في خوارزمية عُليا. ولكن من أين جاءت هذه الخوارزمية، وهي نسخة رياضية مجردة للغاية لله الخالق، والتي، علاوة على ذلك، لا يمكنها إلا أن تنتج النظام؟

يكشف لنا (چويل دو رونيه)[1] «الشفرات المخفية» للكون، لكن هذا الكشف يخفي أيضًا الغموض الذي تأتي منه هذه الشفرات. لقد ابتعدت إرادته في الفهم عمّا لا يمكن فهمه. (مارك هاليفي)، الذي وافق على مبدأ الانبثاق لديه، يعتقد أن انبثاق الكون كان نتيجة «نية أولية»[2].. في نظري، هذه هي نسخة إرادة الفعل المتبقية من الإله التكويني، وهي تخفي

(1)چويل دو رونيه، أسعى إلى الفهم، الروابط التي تحرر، 2016.
(2)مارك هاليفي، ورقة عمل في المؤتمر العالمي للفكر المنعقد، باريس، اليونسكو، 8 ـ 9 ديسمبر، كانون الأول، 2016.

أعمق لغز عنا. أنا مقتنع، على العكس من ذلك، أنه وفقًا لكلمات (يوحنا الصليب) فإن السرّ يكمن في «السحابة المظلمة» التي ليست في متناولنا.

كلما صعد عاليًا،

قل فهمه لماهية السحابة المظلمة

التي تضيء الليل[1].

تؤدي الدهشة المستمرة إلى تساؤل لا ينقطع، أبحث وأجد العديد من التفسيرات في العلوم، ولكن هذه التفسيرات تحتوي على ما لا يمكن تفسيره وتثير أسئلة جديدة.

أعلم أن عقلي، فكري، يفتحان عينيَّ على العالم، والواقع، والحياة، وأعلم في الوقت نفسه أنهما يحبساني داخل حدودهما وبحدودهما، وأن العالم، والواقع، والحياة التي أعرفها مغطاة بالمجهول.

أنا أعيش أكثر فأكثر مع الوعي والشعور بحضور المجهول في المعروف، واللغز في المألوف، والغموض في كل الأشياء، وعلى وجه الخصوص، التقدم الذي أحرزه الغموض مع كل تقدم في المعرفة.

قال (دوستويفسكي): «الإنسان لغز. لو قضينا حياتنا كلها في محاولة فهمه، لما أضعنا وقتنا». وأضاف: «أنا مهتم بهذا اللغز؛ لأني أريد أن أكون إنسانًا. لقد قضيت حياتي كلها منشغلًا ومهتمًا بالغموض الإنساني». إنه جزء من لغز أكبر.

---

(1) يوحنا الصليب، دخلت حيث لم أكن أعلم Entreme donde no supe، في قصائد كاملة، خوسيه كورتي، 1991.

الفصل الأول

المعرفة الجاهلة

نحن نعيش في مجتمع تتوسع فيه المعرفة، ولكن أيضًا مجتمع تتراجع فيه المعرفة.

إن توسع المعرفة لا يُقاوم مثل توسع الكون. إن العقل البشري يفتقر القدرة على استيعاب واحتضان وتنظيم ضخامتها المتزايدة. إذا كان بإمكانه، من خلال القواميس والموسوعات والإنترنت والبيانات الضخمة، تجميعها، وإذا كان بإمكانه أو أمكنه «خوارزمية» بعضها، فلن يتمكن من احتضان الكل عبر هذا التوسع.

حتى داخل تخصص مثل علم الأحياء الجزيئي، تتوسع المعرفة بسرعة، ولا يمكن الوصول إلى معرفة شاملة أو نهائية. يمكننا أن نقتصر على المعرفة الشاملة لجزء صغير من المعرفة، حيث، كما قال (ريمون آرون) سوف نعرف كل شيء عن لا شيء. هل معرفتنا محكوم عليها بأن تكون جزئية، أو على الرغم من أنها غير مكتملة وغير قابلة للاكتمال، هل هناك، بالنسبة لنا، البشر في القرن الحادي والعشرين، طريقة لاكتشاف المعرفة الأساسية وربطها، من أجل معالجة المشكلات الأساسية والعالمية؟

إن فهم المشكلات الأساسية والعالمية يتطلب ربط المعرفة المنفصلة والمجزأة والمقسمة والمشتتة. لكن تعليمنا يعلمنا فصل المعرفة، وليس ربطها، لكننا نحتاج إلى المعرفة القادرة على الربط. ولهذا السبب، وعلى مدى ثلاثين عامًا من العمل، تمكنت، استنادًا إلى مفاهيم صِيغت[1] بالفعل، ولكنها لم تُستخدم بالشكل الكافي، ولم يتم تقديرها بالشكل الكافي، ناهيك عن تجاهلها، من تطوير طريقة لربط المعرفة مع بعضها البعض وجعلها متكاملة. يهدف المنهج إلى إدراك التعقيد، وليس الاكتمال؛ لأننا محكومون بعدم الاكتمال. إن المعرفة المعقدة لا تستطيع إزالة عدم اليقين، وعدم الكفاية، وعدم الاكتمال داخلها، ولكن لديها ميزة الاعتراف بعدم اليقين وعدم اكتمال معرفتنا وعدم كفايتها.

إن توزيع المعرفة وتقسيمها إلى تخصصات متخصصة يزيل المشكلات الرئيسة التي تنشأ عند الجمع بين المعرفة المحصورة داخل التخصصات. وأيضًا تُزال الأسئلة الأساسية. إن جهلهم يحافظ على جاهلية تسود ليس فقط على معاصرينا، بل وعلى العلماء والخبراء أيضًا، جاهلين بجهلهم.

إننا مدينون للتقدم في مجال العلوم منذ الفيزياء الكمومية، إلى علم الكونيات بعد (هابل) إلى علم الأحياء الجزيئي، وعلم الوراثة، وعلم سلوك الحيوان، إلى توحيد علوم الأرض وتطور علم البيئة، والاكتشافات والإيضاحات غير العادية حول الكون والأرض والحياة.

لكن الإيضاحات العلمية الضخمة تخفي عنه عماه. إنه يجهل افتراضاته،

---

(1) Par Ludwig von Bertalanffy, John von Neumann, Heinz von Foerster, Norbert Wiener, William Ashby, Gregory Bateson entre autres.

التي أوضحها على الرغم من ذلك فلاسفة العلوم: (إدموند هوسرل)، (جاستون باشلار)، (كارل بوبر)، (توماس كون)، (بول فايرابن)، (ماريو بونغ)، (غيرالد هالتون)، (إيزابيل ستينغرز)، (ميشيل سير). إنه يجهل عماه الناتج عن الانفصال (الذي يفصل ما هو غير قابل للفصل بشكل طبيعي مثل الدماغ/ العقل، الإنسان/ الطبيعة) والاختزال (الذي يعتقد أنه يمكنه تفسير الكل من الأجزاء التي تشكله، في حين أن الكل ينتج صفات غير معروفة للأجزاء).

إنه لا يرى إلا فوائده ويروج لها، إنه أعمى، إلا في حالات قليلة، عن المخاطر الأخلاقية والسياسية الهائلة التي أحدثتها تطوراته الفيزيائية (الأسلحة النووية وغيرها من أسلحة الموت الشامل) والتطورات البيولوچية (مخاطر التلاعب بالأدمغة والتلاعب بالچينات). هناك ثقب أسود في نشاط وعقول العلماء عندما يتأكدون من امتلاكهم جداول للعقل.

والأفضل من ذلك: أن التقدم المذهل للمعرفة العلمية كشف باستمرار عن طبقات أعمق وأوسع من الجهل؛ إن الجهل الجديد يختلف عن الجهل القديم الذي يأتي من عدم المعرفة؛ الجديد ينبع من المعرفة نفسها. لقد تم إحياء الألغاز القديمة، مثل طبيعة واقعنا، من خلال الفيزياء الدقيقة والفيزياء الفلكية. لقد كشف التقدم في مجال الفيزياء الدقيقة عن حقيقة فرعية في أسس كوننا؛ حيث اختفى الزمان والفضاء والمكان. لقد أغرقنا التقدم في مجال الفيزياء الفلكية في لغز الأصول، وكشف ليس فقط عن غرابة الكون، ولكن أيضًا عن عدم إمكانية رؤيته بنسبة تزيد عن 97%. ويُعتقد حاليًا أن مادته لا تشكل سوى 4% من واقعه، وهو ما تتقاسمه المادة

المظلمة والطاقة المظلمة؛ حيث تم اكتشاف هذه الأخيرة أو افتراضها من خلال قوة تمددها.

وأخيرًا فإن تقدم المعرفة يؤدي إلى جهل جديد وعميق للغاية؛ لأن كل التقدم في علوم الكون يؤدي إلى المجهول: عدم معرفة الأصل إذا كان هناك أصل، وعدم معرفة النهاية إذا كانت هناك نهاية، وعدم معرفة جوهر الواقع. وهذا ينطبق أيضًا على أصل الحياة، وعلى الإبداعية الرائعة للأنواع النباتية والحيوانية، وعلى القوة المذهلة للتنظيم التلقائي للأنظمة البيئية والمحيط الحيوي؛ وأخيرًا، ينطبق هذا على أصول البشرية، التي تم التعرف عليها الآن من خلال تطور استمر ملايين السنين من التهجين البشري، ولكن من دون فهم لماذا وكيف ظهر الكائن ذو الدماغ الكبير الذي كان قادرًا على أن يصبح، من بين آخرين، (مايكل أنجلو)، و(بيتهوفن)، و(هيجل)؟.

إن التقدم في علم الأحياء، بدءًا باكتشاف تطور العالم الحي، يكشف لنا لغز الإبداعية لدى النبات والحيوان، ولكن الخوف من نظرية الخلق أدى إلى تسطيح التفسير من خلال مفاهيم الطفرة (المصادفة) والتكيف. علاوة على ذلك، تم التقليل من أهمية كلمة «الإبداعية» في النصوص المتعلقة بالفن، وحتى تم ضمها إلى عالم الأعمال. بمعنى ما، من الإنصاف أن نعتبر العقل البشري مبدعًا حتى في المجالات الثانوية أو السطحية. ولكن في الوقت نفسه، فإن التضخم الذي يشهده يؤدي، كما هو الحال مع كل حالات التضخم، إلى انخفاض قيمته. ومع ذلك، فإننا بحاجة إلى هذا المصطلح، والذي بدونه يعزى التطور البيولوچي والتاريخ البشري بشكل تافه إلى الحتمية والمصادفة.

لقد وصلنا تدريجيًا إلى هذا السؤال: ما هي الحدود الحقيقية لكل

المعرفة، بما في ذلك المعرفة المعقدة[1]؟ ليس بالضرورة أن يكون الأمر غير قابل للمعرفة. إن الكثير مما هو غير معروف حاليًا هو مؤقت وسوف يصبح معروفًا. لكن المعرفة، مع تطورها، وخاصة في العلوم الفيزيائية والبيولوچية، تقترب وتكشف عن مجهول أكثر جذرية وعمقًا. لقد حققت معرفتنا العلمية تقدمًا هائلًا، ولكن هذا التقدم يسمح لنا بالاقتراب من أرض تتحدى مفاهيمنا، وذكاءنا، وتطرح مشكلة حدود المعرفة. إن أعظم تقدم في المعرفة العلمية يؤدي إلى زيادة الجهل في الوقت نفسه الذي تزداد فيه المعرفة. علاوة على ذلك، فإنه لا يحل التناقضات، بل يجعلها غير قابلة للتجاوز. إذا كان الكون قد وُلد من الفراغ، فكيف يمكننا أن نتصور أن المادة يمكن أن تُولد من الفراغ؟ إذا كان الفراغ عرضة للتقلبات، فما الفراغ الذي ليس فارغًا؟

وإذا كنت أشير في هذا الكتاب إلى المفاهيم والنظريات والفرضيات التي توصل إليها العلم اليوم، فليس ذلك من باب اعتبارها حقائق ثابتة. ستؤدي العديد من الاكتشافات إلى العديد من الأسئلة. ولكن الأمر المهم بالنسبة لي هو كل ما يقودوننا إلى التخلي عنها نهائيًّا: سيادة النظام الحتمي، والاختزالية، والانفصال بين التخصصات، والواقع كمفهوم واضح ومتميز، وما يهم أيضًا بالنسبة لي هو كل ما يقودنا إليه،

---

(1) يشير (نيلز بور) إلى ثلاثة أنواع من الحدود للمعرفة الميكروفيزيائية، والتي قام، علاوة على ذلك، بتعميمها:

أ ـ استحالة توحيد المعرفة، ب ـ ارتباط المعرفة بظهور التناقضات التي لا يمكن التغلب عليها.

ج ـ عدم قابلية الفصل بين الكائن/ أداة القياس والذي يمكن تعميمه إلى عدم قابلية الفصل بين الذات وموضوع المعرفة.

أحيانًا من دون أن ندري ذلك، علينا أن نفكر في: تعقيد الكون، والحياة، والإنسانية.

بالتأكيد هناك أشياء كثيرة لا نعرفها في الكون المادي والبيولوچي والبشري، والتي سنعرفها عاجلًا أم آجلًا ونعترف بها. ستكون هناك تطورات ستجبرنا على تغيير مفاهيمنا الحالية عن الحياة والكون. سنكتشف قوى واتصالات جديدة، وسنحل العديد من الألغاز، ولكن قدرات العقل البشري لها حدود.

إن التفكير المعقد يعترف بالشكوك، لكنه لا يستطيع أن يقول ما لا يمكن قوله، ولا يستطيع أن يتجاوز قدرات العقل البشري. ومع ذلك، فإن الفكر المعقد يحمل في طياته مبدأ عدم اكتمال (الإنسان والمعرفة)، وهو يؤدي إلى الغموض.

إن المجهول هو قلب المعروف. في بعض الحالات، يكون المجهول بمثابة لغز، والذي، مثل لغز الروايات البوليسية، سوف يحل بالمعرفة، لا يقتصر الأمر على أن الغموض يفلت من المعرفة، بل إنه في قلب المعرفة.

إن المجهول هو لغز؛ إن ما لا يمكن معرفته هو لغز. أين ومتى نصل إلى اللغز؟

كما سنرى، فإن المجهول، أو اللغز، ينشأ من أصل ونهاية الكون، من طبيعة الواقع، من أصل الحياة، من الإبداع الذي تجلّى من خلال التطورات البيولوچيَّة، من ظهور الإنسان عاقل/ مجنون. إن اللغز، الأول والأخير، موجود في دماغنا/ عقلنا: إنه أكثر الألغاز روعة، على الرغم من أنه ما ينتج معرفتنا.

لقد اكتشفنا حدود العقلانية: الاستقراء، والاستنتاج، والمنطق، كما اكتشفنا أن المسلمات التي تقوم عليها البراهين العلمية غير قابلة للإثبات. وعلى نحو مماثل، تبيّن أن الافتراضات الأساسية لأي تفسير غير قابلة للتفسير. إن أزمة أسس المعرفة العلمية وأزمة الفكر تؤديان بالفعل إلى الغموض. يغطي الغموض جميع المشكلات العميقة والجوهرية التي يطرحها العقل البشري. هل ينبغي عليه أن يستسلم للظواهر ويقتصر عليها كما دعا (كانط)؟ هل يمكننا أن نقترب من اللغز؟ هل يمكننا الحوار مع الغموض؟

هذا هو معنى مغامرتي الحالية: أن أجوب حدود المعرفة لأستوعب وأشعر بعدم الانفصال بين المعرفة والجهل والغموض.

الفصل الثاني

الواقع

كل شيء واقعي وليس واقعيًا
واقعي وغير واقعي في آن
لا واقعي ولا غير واقعي
هذا هو درس السيد (بوذا).

الفيلسوف (ناجارچونا) نقلًا عن (فريدريك نيف)

أجمل الوهم هو أن نعتقد أننا نعيش في عالم واقعي والعكس صحيح.

(موريس شابيلان)

إن الواقع هو انحراف عن الممكن.

(بيير أندريه تيرزيان)

إن واقعنا هو واقع عالم ثلاثي الأبعاد؛ حيث توجد الأشياء والأنشطة، وتجري فيه الأحداث في الزمان والمكان. فهو يتكون من المادة والطاقة والمعلومات.

على الرغم من الشعور الواضح بواقعنا، أي واقع وجودنا الشخصي، واقع أحداثنا، واقع طبيعتنا، أرضنا، عالمنا، الزمان والمكان، إلا أننا نشعر أحيانًا بعدم واقعية واقعنا.

الفكرة قديمة وقد صِيغت في مناسبات عديدة.

وفقًا للفكر الفيدي، فإن واقعنا سيكون مايا

(عالم الأوهام).

وفقًا للفكر البوذي، سيكون سامسارا

(عالم المظاهر).

في الغرب، رُوّج لفكرة أفلاطون، تلك الفكرة التي تقول بأننا لا نعرف عن الواقع سوى ظلال، بطرق مختلفة. لقد ظهرت فكرة أن الحياة عبارة عن حلم[1] مرارًا وتكرارًا في ثقافتنا، ولا سيما مع صياغة (شكسبير) في مسرحية العاصفة: «نحن مصنوعون من مادة الأحلام». لقد وصل (ليوباردي) إلى هذا الانقلاب المنطقي: «إنه أمر سخيف، ولكنه صحيح تمامًا أنه بما أن الواقع ليس شيئًا، فلا يوجد شيء حقيقي وجوهري في العالم سوى الأوهام» (زيبالدون).

وبطريقة أخرى، فإننا نعلم، منذ (كانط)، ما أكدته المعرفة العلمية حول الدماغ البشري، وهو أن إدراكنا للعالم الخارجي تنتجه بشكل مشترك القوى التنظيمية للدماغ[2]. هل الواقعي هو تجسيد لواقع ليس مصنوعًا من أشياء ولكننا «نشيّئه»؟

هل الواقع شبه خيالي؟

---

(1)عنوان مسرحية لـ(كالديرون).

(2)نعلم أنه لا يوجد فرق جوهري بين الإدراك والهلوسة، بل إن كل إدراك قد يتضمن جزءًا هلوسيًا.

على أية حال، لا يمكننا أن ندرك الواقع إلا من خلال تمثيلات وتفسيرات.

اقترح (كارل بريبرام) أن دماغنا يحول إلى صور ثلاثية الأبعاد (أو صور بارزة) واقع «مكون فقط من موجات ترددية[1]». لكن تُترجم هذه الموجات إلى لغة علمية مستوى ملاحظة يشبه مستوى الأشعة السينية التي ترى العظام فقط وليس اللحم. الموجات الترددية هي أيضًا شيء آخر غير موجات التردد.

ومن هنا جاءت فكرة بناء تمثيل الواقع بواسطة العقل (چان لوي لوموانى[2]). ويُضاف إلى ذلك فكرة البناء الاجتماعي للواقع، التي استكشفها علماء الاجتماع (بيتر بيرغر)، (توماس لوكمان)، (كلاوس كريبندورف).

وهكذا فإن واقع العالم الخارجي هو واقع مؤنسن: نحن لا نعرفه بشكل مباشر، ولكن من خلال عقلنا البشري، بناؤه ليس فقط من خلال إدراكاتنا وفيها، ولكن أيضًا من خلال لغتنا وفيها، ومن خلال نظرياتنا أو فلسفاتنا وفيها، ومن خلال ثقافاتنا ومجتمعاتنا وفيها.

من ناحيتي، أنا من أتباع نظرية البنائين المشاركين، وأعتقد أننا نبني، على المستويات النفسية والاجتماعية والتاريخية، ترجمة لواقع خارجي بالنسبة لنا.

---

(1) كارل بريبرام: «المادة التي تحيط بنا ليست سوى صورة بارزة (هولوغرام) لواقع يتكون فقط من موجات التردد»، الدماغ والإدراك: النظام الهولونومي والبنية في المعالجة التصويرية، هيلسديل، نيوچيرسي، لورانس إيرلباوم أسوشيتس، 1991.

(2) Le Constructivisme, tome 1, Des fondements, ESF, tome 2, 1994; Des épistémologies, ESF, 1995.

ما الذي يكمن وراء كل إعادة بناء عقولنا وبنياتنا الاجتماعية؟ هل هو واقع «حقيقي»، «مُخفى»، بل مُستتر (برنار دي إسبانيا)؟ هل هو واقع في ذاته لا نستطيع إدراكه (كانط)؟ ولكن هل هناك واقع في ذاته؟

علاوة على ذلك، فإن واقعنا الإنساني منسوج من الخيال: أحلام اليقظة، والاستيهامات، والخيالات، والهواجس، والأمنيات، ورواياتنا، وأفلامنا، ومسلسلاتنا التلفزيونية، وترفيهنا، كلها مكونات مشاركة في واقعنا الإنساني. أثناء نومنا، نضفي على أحلامنا واقعًا، وفي الصباح فقط ننتزعه منها. في السينما، نضفي واقعًا قويًا جدًّا على الشخصيات ومغامراتها، وفقط ضوء ليلي صغير في أذهاننا يذكرنا، أثناء العرض، أننا مجرد متفرجين على كرسي بذراعين.

علاوة على ذلك، فإن واقعنا البشري ينتج أساطير، وآلهة، وأيديولوچيات نمنحها واقعًا أسمى من واقعنا، أو حتى بالنسبة للآلهة، نمنحها واقعًا أسمى، على الرغم من أنه من إنتاج عقولنا. إن واقع أساطيرنا، وآلهتنا، وأفكارنا تظل رهنًا بجماعات العقول التي تغذيها. وهكذا تموت الآلهة، وتتلاشى الأساطير، وتمر الأفكار: إن واقعه المطلق بالنسبة للمؤمن يزول مع المؤمن، ولكنه كان مطلقًا في الإيمان. إن ما ينطبق على الآلهة ينطبق على الأفكار، وخاصة الأيديولوچيات العظيمة التي تتمتع بواقع أسمى يثير الإيمان المتقد: فالشيوعية كانت في الواقع دين الخلاص الأرضي، والذي، مثل كل الأديان العظيمة، أنتج أبطالًا وشهداء وجلادين.

نعتبر خيال الآخرين غير واقعي، على الرغم من أنه واقعي جدًّا بالنسبة لهم، من دون أن ندرك أن واقعنا يتضمن، في جوهره، الخيال. إذا كان بإمكاننا الشك في واقع العالم المحسوس، فهل يُمكننا القول إن حصن

الواقع المُطلق يكمن في يقين الذات، الذي يتجلى في التأكيد المُطلق لـ«أنا هو»، أي ليس فقط «أنا إنسان»، بل أيضًا «أنا هو أنا»، ذات حية تُؤكد ذاتها وتضع نفسها في مركز عالمها؟ ومع ذلك، يحدث أن يضعف واقع «الأنا» من خلال الواقع الأعلى لـ«نحن»، الذي يُصبح حينئذٍ واقعًا، كما في تجاربنا المشتركة لاندماج الذات في «نحن» اللقاءات النارية، «نحن» مباريات كرة القدم، «نحن» الراقصين المحمومين، «نحن» المواجهة بالجسدية من أجل الحب. في كلٍّ منا، أحيانًا تغرق الـ«نحن» أو الـ«أنا». تغمر الـ«أنا» في طقوس التملك؛ حيث يُصبح الشخص مسكونًا بـ«أوريشيا» (أرواح الآلهة)؛ ويبدو وكأنه يتلاشى من خلال سموه نفسه، مما يقوده إلى النشوة والاندماج والالتباس بين الذات والـ«أوريشيا». إن الحصن الأسمى والأخير لواقعنا يكمن، بالنسبة لكلٍّ منا، في قلب معاناتنا، ومتعتنا، ومسرتنا، وحبنا، وخوفنا، ورغباتنا. من هذا المنظور، تبدو مشاعرنا الذاتية المُعاشة أكثر واقعيةً لنا من أي شيء آخر. بالنسبة لنا نحن ـ البشر ـ، تُشكّل العاطفة، وهي الذاتية بحدّ ذاتها، نواة واقعنا الصلبة.

الحصن الأسمى والأخير لأي واقع خارجي عنا يكمن فيما يقاوم رغباتنا، ونوايانا، وأفعالنا، بل أقول أيضًا فيما يقاوم أفكارنا.

كل شيء وهم، لا شيء وهم

كيف نفهم أنه على الرغم من إحساسنا بالواقع المطلق، وخاصةً في معاناتنا وسعادتنا، يبدو واقع عالمنا أحيانًا ضعيف الاتساق؟ كيف يكون واقعنا أحيانًا واضحًا ومألوفًا لنا، وأحيانًا غريبًا ومجهولًا؟ كيف يصبح واقعنا أحيانًا ضئيل الواقعية، وأحيانًا واقعًا مطلقًا؟ ما الواقع المطلق

والواقع ضئيل الواقعية؟ ما الرابط بين الواقع المطلق والواقع ضئيل الواقعية؟ ما واقع الواقع[1]؟

لدينا شعور قوي بحقيقتين متتاليتين: كل شيء وهم، لا شيء وهم

لنتفحص عالمنا المادي؛ ماديته واقعية؛ لأننا نختبرها باستمرار. المكان واقعي تمامًا بالنسبة لنا؛ لأننا نتحرك فيه باستمرار؛ والزمان واقعي تمامًا بالنسبة لنا؛ لأنه لو كان الحاضر موجودًا فقط، لكان الماضي حاضرًا في ذاكرتنا؛ لأنه يُبعث خياليًا في ذاكرتنا، والمستقبل يُولد مع كل حاضر.

الأشياء المادية الملموسة واقعية: النباتات، الزهور، الفراشات، القطط، الكلاب، أفراس النهر. كل هذا واقعي بالفعل. بالطبع، كل هذا يزول عاجلًا أم آجلًا، كل شيء يتحول، كل شيء يمضي، «كل شيء يتدفق Ta panta rhei»، كما قال (هيراقليطس) كل شيء زائل، كما قال المتيقظ أو المستنير (لقب بوذا). بالطبع، واقعنا هش، مُقدّر له أن يتطور ويختفي، ولكنه، على وجه التحديد، يبدو لنا أكثر قيمة؛ لأنه زائل: نشعر أن أثمن ما في الواقع هو الأكثر هشاشة ـ الجمال، والخير، والحب.

ومع ذلك، فإن التقدم في الفيزياء الكونية وفيزياء الكم قد قلّص عالمنا المادي، بل وأفقده جوهره. جعل (آينشتاين) الزمان والمكان نسبيين، واللذان، على المستوى الكوني، لم يعودا مطلقين واندمجا.

---

(1) Paul Watzlawick, La Réalité de la réalité: confusion, désinformation, communication, Seuil, 1978.

يختفي الزمان والمكان على المستوى الكمومي الدقيق: يتلاشى واقع كوننا المادي ـ الزمان والمكان وأشياء عالمنا ـ بمجرد أن نفحصه في مكوناته الفيزيائية الدقيقة. تصبح الطاولة الصلبة الممتلئة فراغًا شاسعًا تتكون فيه الذرات المتناثرة من جسيمات. ثم تتوقف الجسيمات عن كونها أشياء قابلة للتحديد في موضع معين. تختلف الفيزياء الدقيقة عن فيزيائنا، التي يعتمد عليها الواقع، مع ذلك. يختفي هناك وقتنا ومكاننا وأغراضنا ومنطق قانون الوسط المستبعد: كما أظهرت تجربة (آلان أسبيه) فإن الجسيمات التي انفصلت يكون لها تأثير لحظي، بينما في واقعنا لا يمكن أن يحدث أي اتصال يتجاوز سرعة الضوء. يمكن أن يكون الجسيم في مكانين مختلفين في الوقت نفسه. يكون الجسيم أحيانًا موجة، وأحيانًا هباءة، وكما أشار (بور) بحق، فهو تناقض لا يمكن التغلب عليه يجعل حقيقتين متعارضتين متكاملتين، أي أحيانًا كيانًا متقطعًا، وأحيانًا كيانًا متصلًا. وعلى الرغم من التناقض، هناك عدم انفصال بين المتصل والمتقطع. ومع ذلك، فإن هذا الكون الميكروفيزيائي يتلاشى من تلقاء نفسه بمجرد أن يصبح مضغوطًا ليشكل كوننا المادي. نجد مفارقة مماثلة على نطاق الكون العملاق. يفترض النموذج «المعياري» لعلم الكونيات وجود فراغ أصلي، بدون زمان أو مكان، ولكنه مملوء بطاقات افتراضية، وعرضة للتقلبات؛ حيث كان من الممكن أن ينشأ حدث بركاني يولد منه الزمكان، الكيانات المادية الأولى، في آن واحد.

ينبثق الكون بانبثاق الزمكان، الذي بالنسبة لنا، منفصل إلى مكان وزمان. ثم تترابط الجسيمات لتشكل الذرات، وتتشكل النجوم وتتوهج،

ويتشكل كوننا. إن الروابط المنظمة بين الجسيمات والذرات والهباءات والنجوم هي التي أدت إلى انبثاق واقعنا المادي.

واقعنا ليس أوليًا؛ إنه منبثق.

كيف يمكن لواقع كوننا أن ينبثق مما يفتقر، بالنسبة له، جميع معايير الواقع؟

هنا، يقدم مفهوم الانبثاق إيضاحًا حاسمًا، وإن كان غير قابل للتفسير. الانبثاق مفهوم منهجي مُدهش بدأ العلمُ يُدمجه. الانبثاق هو نوع من الواقع الجديد الذي يتمتع بصفات وخصائص خاصة به، والذي يتشكل ويكوّن ويتجسد من التجمع المنظم لعناصر لا تتمتع بصفات وخصائص هذا الواقع. وهكذا، تكوّن التنظيم الحي، ويتكوّن باستمرار، من جزيئات فيزيائية كيميائية لا تمتلك، بمعزل عن غيرها، خصائص الحياة. ومع ذلك، فإن التعقيد التنظيمي للكائنات الحية يمنحها صفاتٍ مجهولة للجزيئات: الإصلاح الذاتي، والتكاثر الذاتي، والقدرات المعرفية. ينشأ واقع الحياة من تعقيد تنظيمها الذاتي، وهو في الواقع تنظيم ذاتي بيئي، يحتاج إلى بيئته لاستخراج الطاقة اللازمة لعمله المتواصل (وهذا الأخير يعمل على تدهورها باستمرار).

إن واقعنا ككائنات فردية مُنحت أجسادًا وعقولًا في عالمٍ من الأشياء المادية ـ نباتات، حيوانات، منازل، آلات، سيارات، متاجر ـ ينبثق من خلال واقعه ذاته. يستمر هذا الانبثاق من دون توقف من مكونات ميكروفيزيائية خالية من موضع محدد؛ حيث ينعدم وجود زماننا ومكاننا.

لذا، يمكن لمفهوم الانبثاق أن يساعدنا على فهم شعورنا المزدوج

والمتعارض بالواقع المطلق أو النسبي أو الضعيف لواقعنا. لقد انبثق واقع عالمنا على مدى الخمسة عشر مليار سنة الماضية من عملية تنظيم ذاتي. ينبثق الكون المادي باستمرار من عناصر ميكروفيزيائية خالية من المادية، لكن تركيبها يحدث انبثاقًا لماديتنا[1]. المادة ليست واقعًا أوليًا، بل واقعًا منبثقًا. ما نسميه فقدان التماسك هو الظاهرة التي بواسطتها يُؤدي ارتباط عدد كبير من العناصر الفيزيائية الدقيقة، عند عتبة معينة، إلى نشوء كوننا المكاني ـ الزماني. لذا، من الواضح أن واقعنا المكاني ـ الزماني، والفيزيائي، والبيولوچي، هو انبثاق لواقع غريب ندركه بكلماتنا، وأدوات الكشف والملاحظة والتجريب، والذي يفلت من منطقنا.

هذا الواقع الفيزيائي الدقيق لا يتمتع سوى بواقع ضئيل مقارنةً بواقعنا، ولكنه يعتمد على هذا الواقع الخالي من الواقع، لا يُقدم لنا علم الفيزياء الدقيقة سوى مقارباتٍ غير مباشرةٍ أو مجازيةٍ لما لا يمكن تصوره ولا يمكن وصفه.

الزمان والمكان هما انبثاقان ظهرا في تكوّن الكون ومن خلاله. إنهما واقعيان، مع أن لهما واقعًا يعتمد على مجهولٍ ليس زمانًا ولا مكانًا («فراغ»؟) والذي يبقى أساس واقعنا. كذلك، واقعنا مطلق، في ألمنا كما في حبنا في عاطفتنا، كما رأى (ستيفان لوباسكو)؛ لأن انبثاق عالمنا هو واقع، وإن كان يعتمد بشكل كبير على «عالم تحتي» يتمتع بواقع آخر؛ حيث لا ينبثق زماننا ومكاننا.

---

(1) لنتذكر أن المادة، بالنسبة للفلسفة والعلم المادي، وكذلك بالنسبة للحس السليم، كانت تبدو وكأنها الواقع الأساسي الأول.

في الواقع، يُشكّل هذا الواقع المنبثق تجسيدًا (على الأقل بالنسبة لحواسنا وعقولنا): واقعيًا، مشتقًا من اللفظة اللاتينية res، أي شيء. مفهوم الواقع متجسد في حد ذاته؛ كوننا شيئًا عملاقًا يتكون من أشياء منفصلة عن بعضها البعض بالزمان والمكان. واقعنا هو تشيؤ.

ومع ذلك، وهنا أستعيد فكرة (نيلز بور)، التي طورتها في مكان آخر، توجد مفارقات رئيسة في الفيزياء الدقيقة بطريقة معينة في واقعنا الفيزيائي والبيولوچي والبشري. وبالتالي، فإن عدم قابلية انفصال ما هو منفصل يتجلى بطريقة معينة في عالمنا وعلى نطاقنا؛ ليست جسيمات الفيزياء الدقيقة المنفصلة وحدها غير قابلة للانفصال عن الموجة «غير المنفصلة»، بل إن الفرد المنفصل عن النوع والمجتمع هو في الوقت نفسه غير قابل للانفصال عن النوع والمجتمع. نحن بشر منفصلون عن أسلافنا البيولوچيين، لكننا غير قابلين للانفصال عنهم؛ نحن منفصلون عن عالم الحيوان، لكننا غير قابلين للانفصال عن العملية التي من الكائن وحيد الخلية أدت إلينا، تمامًا كما نحن غير قابلين للانفصال عن التاريخ الفيزيائي للكون الذي انبثقت منه الحياة. الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن المفهوم الفيزيائي الفلكي لكوننا لا يفترض فوضى كامنة فحسب، بل يفترض أيضًا أنه انبثق مما يبدو أنه يتمتع بأقل قدر من الواقع: الفراغ. ومع ذلك، يُفترض أن هذا الفراغ يتكون من طاقات افتراضية لا نهائية، والتي، عند تحقيقها (عقب حدث أو حادث غريب)، كانت ستُنتج هذا الانفجار الحراري المسمى مجازيًا بالانفجار الكبير. وبالتالي، فإن ما يبدو أقل واقعية، الفراغ، كان مصدر واقعنا.

لذا، لا وجود للواقع في حدّ ذاته. ولكن هناك تنظيمًا ذاتيًا للكون

يُنتج واقعه. وكما يؤكد (باساراب نيكولسكو)، هناك مستويات للواقع، متباينة تمامًا عن بعضها البعض، ولكنها غير قابلة للفصل، وتعتمد على بعضها بعضًا بالقدر نفسه. علاوة على ذلك، هناك مستوى دائم غير مرئي مما قبل الواقع، أو ما دون الواقع، أو ما فوق الواقع، مشترك الحضور في كوننا. بالنسبة للبوذية، هذا المستوى، تحت مسمى الفراغ، هو الحقيقة الأسمى، أو النيرفانا، وبالنسبة لنا، هو ما يهرب من الواقع، ولكنه يُرسي الوقائع. تكهن مفكر طاوي بوذي، مثل (فانغ يي تشي)، بأن السامسارا (عالمنا) والنيرفانا ليسا عالمين منفصلين، بل قطبين لشيء واحد. وذهب (ناغارجونا) إلى حدّ القول: «ما دمتَ تُفرّق بين السامسارا والنيرفانا، فأنت في السامسارا»، وكأنه يُشير إلى أن النيرفانا داخل السامسارا، كما أن السامسارا داخل النيرفانا.

إذا كان مجموع الوقائع يشكّل الواقع، فإن الواقع متعدد الأبعاد (بيير أندريه ترزيان). أودّ أن أعبّر عن ذلك بطريقة أخرى: يجب أن نجعل فكرة الواقع معقدة للغاية.

الواقع فائق التعقيد

المتصل والمتقطع، المنفصل وغير المنفصل، غير قابلين للانفصال في آن واحد. على نحوٍ غير منطقي، الواقعي وغير الواقعي كل منهما داخل الآخر. يتألف نسيج واقعنا من طبقات، وثغرات، وانبثاقات، دون منطقية، وفوق منطقية، ولا منطقية، وخارج منطقية، لا نعرفها حق المعرفة.

الانبثاق غير قابل للاستنتاج منطقيًا: لا يسعنا إلا ملاحظته. إنه ليس تفسيرًا؛ إنه لغزٌ خاص بالواقع المادي.

الفوضى ليست سابقةً للكون فحسب؛ بل هي جزء لا يتجزأ منه. الكون ليس نظامًا فحسب: إنه حوار دائم، ذو أثر رجعي، وتكراري بين النظام والفوضى والتنظيم. المصادفة، ذلك المجهول، حاضرة في كل مكان.

حتى في إدراكنا للكون البشري، لا يخضع الواقع للمنطق الكلاسيكي إلا إذا قطعناه إلى أجزاءٍ منفصلة.

ويبقى السؤال المهم: هل نحن مقيدون، منفيون، منفصلون عن وقائع لا تُوصف؟ هل نشارك فيها من دون وعي؟ من خلال ومضات من البصيرة؟ ما العلاقة التي قد تربط عقولنا بواقعٍ غير قابل للإدراك وغير قابل للوصف؟ إن انتقالات الأفكار الموثقة، والتنبؤات، والاستبصار التنبؤي المُوثق، أشبه بفجوات في الزمان (التنبؤات، الاستبصار) أو المكان (التخاطر)، مما يُشير إلى قدرة أدمغتنا على المشاركة بشكل عرضي أو من خلال ومضات في هذا الواقع غير القابل للانفصال، من دون زمان ولا مكان.

كما كان يقول (باسكال): «نحن بين لانهائيين». تتمثَّل المعرفة البشرية في نطاق وسطي بين هذين اللانهائيين، منطقة شبه ظل تعبرها ومضات. بالبقاء في هذا النطاق، نستشف أننا في هاوية، يتجاوز فيها الواقع المُتصور، ويتفتت ويذوب فيه. خارج هذا النطاق الوسطي، لا يمكننا تحديد تمييزاتنا، ومنطقنا، وانفصالاتنا، ويتخذ هذا الواقع الفائق مظهر الفوضى قبل أن يغرق في الفراغ، الذي يحتوي على وفرة من الافتراضيات. الواقع مُعقد للغاية بالفعل: فهو يحتوي على التعددية، بل وحتى التباين، والتجسيد، والخيال، وعدم اليقين، والمجهول، وأخيرًا الغموض.

الغموض في الواقع، ربما بكلا معنيي كلمة غموض:

1 ـ غير قابل للإدراك 2 ـ طقسٌ دنيوي/ مقدس؛ حيث تلعب حياتنا ويتلاعب بها.

ومع ذلك، في واقع منسوج من اللاواقع، المطلقِ والوهمي في آن، تُشكّل المعاناة، والتمتع، والولادة، والعيش، والموت ـ هذه الوقائع العابرة والزائلة ـ واقعنا الإنساني الحقيقي.

الفصل الثالث

كوننا

لا تُنكروا على العالم طابعه المُقلق والمُلغز.

(فريدريك نيتشه)

الخلق هو ما هو جديد جذريًا، أي ما لا يمكن اشتقاقه
مما ينبثق منه، وما لا يُحدد تحديدًا شاملًا بما سبقه.

(كورنيليوس كاستورياديس)

هل نحن كالضفدع في قاع البئر الذي لا يمكنه معرفة أعالي البحار؟ كلا: لدينا تلسكوبات، ومركبات فضائية تُبحر في الكون، ومُسرّعات جسيمات تكتشف الجسيمات؛ نعرف عن تمدد المجرات، والثقوب السوداء، والطاقة المظلمة، والمادة المظلمة، لكن كل هذا يكشف لأذهاننا عن ضخامة الكون المُذهلة، وعن معجزته المُذهلة، ويقودنا، إن لم يكن إلى الغموض، فعلى الأقل إلى اللغز.

لم يتقدم أي علم، منذ (هابل)، بقدر تقدم علم الفلك، الذي أصبح علم الكونيات. لم يُثر أحد مثل هذا الكمّ من الأفكار والتأملات الغنية والعميقة، ولا سيما (ميشيل كاسيه)، و(هوبير ريفز)، و(ترينه شوان ثوان)، و(چان

بيير لومينيه)، لم ينتج أحد مثل هذا القدر من الفهم وسوء الفهم العميق حول أصل الكون وطبيعته ومستقبله ومصيره.

نكتشف الغرابة المطلقة لهذا الكون الذي انبثقت منه عقولنا، والذي نحن أطفاله متناهي الصغر.

الخلق

لنبدأ من البداية. إن كانت هناك بداية بالفعل.

وفقًا للرأي السائد حاليًا، فإن انفجارًا حراريًا غير مسبوق، أدى إلى تحرر الطاقة، مما أدى إلى ولادة الكون. ما زال سبب هذا الحدث المُولِّد مجهولًا. يُفترض أن ما سبق الحدث كان فراغًا، لكن هذا الفراغ ليس فارغًا؛ فهو عرضة لتقلبات كمية، ويحتوي على جسيمات افتراضية، والأهم من ذلك كله، يمتلك طاقات افتراضية شبه لا نهائية، والتي كان من الممكن أن تتحقق من خلال موجة «الانفجار العظيم».

تُستخدم الكلمات لملء فراغات ما يتعذر التعبير عنه: الفراغ، الإمكانات، الانفجار العظيم، التفرد.

تعبّر الطاوية عن ذلك بشكل أوضح: «ما لا اسم له هو أصل السماء والأرض». الفراغ غير الفارغ المُحتمل يفلت من أي تصور عقلاني. هذا المفهوم للفراغ غير الفارغ يُظهر عجزًا حقيقيًا عن إيجاد مصطلح لغوي يعرّف هذه الحالة المُتناقضة. كما إنها تكشف الخوف من غير المفهوم، والذي نخفيه بإعطائه اسمًا فارغًا للأسف. وهكذا، لم يكن كوننا ليولد من لا شيء، من «العدم» ex nihilo، ولا حتى من فراغ سيكون فارغًا تمامًا، بل من

فراغ يحمل في داخله طاقات كامنة لا متناهية. إذا كانت الطاقات اللامتناهية كامنة فقط في الفراغ الأصلي، فهذا يعني أيضًا أن كل شيء غير متمايز، لا شيء منفصل. بعبارة أخرى، لا يوجد مكان ولا زمان، وهما الفاصلان اللذان يسمحان بوجود كون به العديد من الأشياء والكيانات المنفصلة، بالإضافة إلى تطورها. ولكن، هل تكون هذه البداية تحولًا، كتحول اليعسوب الذي هو نتاج هوائي غير عادي لتحول يرقة زاحفة؟ وهذا يعيدنا إلى المشكلة المُلحة: هل يكون هذا الفراغ أبديًا، أي غير مخلوق، أم أن له بداية خاصة به؟ ومَنْ ذا الذي يجزم بأن هذه البداية لا تتزامن مع نهاية دورة، وفقًا لفرضية (روجر بنروز)؟ وعلى نحو مماثل، يفترض (إتيان كلاين) أن الانكماش الشديد للكون السابق ربما كان سببًا في ولادة كون قادر على التوسع. كلتا الفرضيتين تُعيدنا إلى المعضلة المُستعصية منطقيًا: هل لهذه الدورة بداية؟ من ماذا؟ إذا كانت أبدية، فبسبب ماذا؟ نصل إلى مأزق منطقي، حدّ لعقلنا، أدركه (كانط) جيدًا، عندما نصطدم بعدم إمكانية تصور بداية من العدم، أو خلود بلا بداية. أن تُولد أو لا تُولد، هذه هي المسألة! لقد بيّن (هيجل) أن الوجود والعدم مترادفان، إذ لا يحدّ أي منهما أي تحديد. الوجود الخالص هو اللامحدود، كما هو العدم الخالص، أحدهما في امتلاء مطلق، والآخر في فراغ مطلق. في حين أن فراغنا الأصلي سيكون مرادفًا لوفرة الإمكانات، التي، بمجرد تحررها، ستصبح خالقة لكون. أو ربما لتعددية أكوان متواصلة، كفقاعات شمبانيا، وفقًا لتعبير ميشيل كاسيه. لن تكون الغرابة في هذا الفراغ غير الفارغ الذي انبثق منه كوننا فحسب، بل ستكون أيضًا في هذا الميلاد نفسه. هل يمكن أن يكون ريحًا من الفراغ؟ إكتوبلازما يفرزها ما لا اسم له؟ لعبة؟ لعبة غريبة.

هل كان من قبيل المصادفة أم الضرورة انبثاق الضوء من الفراغ[1]، ثم المادة، وتم تنظيم هذا الكون؟

اقترح (فريدريك نيف)[2] فرضية مفادها أن كوننا نشأ من اصطدام كونين غشائيين، مما يعيدنا إلى لغز أصل هذين الكونين الغشائيين واصطدامهما. فرضية أخرى: لم يرَ (إيليا بريغوجين) في الأصل تفردًا، بل عدم استقرار. ليس فراغًا، بل كونًا سابقًا يحتوي على زمن بدائي، وليس انفجارًا حراريًا، بل انبجاسًا إنتروبيًا[3]، وليس بداية، بل تغيرًا طوريًا، تُثير هذه الفرضية أيضًا صعوبات هائلة في تصور كل من ما قبل البداية والبداية نفسها.

أما (إتيان كلاين)، فيُعبر بالدرجة الأولى عن عدم يقينه بشأن الأصل: «ليس لدينا دليل علمي على أن الكون سبقه أي شيء، ولا دليل علمي على أن الكون ليس له أصل... السؤال: هل كان هناك أصل؟... لا نعرف[4]»!.

وفي جميع هذه الفرضيات، يمكن تبديل الولادة إلى تحول، على اعتبار أن التحول ينتج دائمًا واقعًا جديدًا.

بالنسبة لليونانيين، كانت الفوضى أبا الكون. الفوضى ليست اضطرابًا

---

(1) علاوة على ذلك، يلاحظ (ميشيل كاسيه) أن كوننا يكاد يكون فارغًا، إذا توقفنا عن الهوس بمليارات النجوم وتأملنا الفراغ الهائل بين المجرات والنجوم يكاد يكون فارغًا إذا اعتبرنا أن الأجسام الكثيفة والصلبة ظاهريًا في كوننا اليومي هي في الواقع، قبل كل شيء، فضاء فارغ مليء بالذرات هنا وهناك.

(2) Frédéric Nef, La Force du vide, Seuil, 2011.

(3) انبجاس إنتروبي هو مصطلح يشير إلى حركة أو نقل الإنتروبيا من نظام إلى آخر، أو إلى عملية تؤدي إلى زيادة الإنتروبيا في نظام ما. الإنتروبيا هي مقياس للفوضى أو عدم الترتيب في نظام ما، وبزيادتها يصبح النظام أكثر فوضى وأقل تنظيمًا.

(4) Cf. Étienne Klein in La Recherche, hors série «Le temps», p. 52

(رؤية اختزالية). إنها ما يحمل في طياته، بشكل مبهم، إمكانية النظام واختلال النظام والتنظيم. الانتقال من الفوضى إلى الكون هو تحقيق هذه الإمكانات، التي تصبح بدورها قوى متكاملة ومتعارضة في آن واحد. قد يظن المرء أن مفهوم الفوضى، كما أشرتُ إليه للتو، يشمل جزئيًا الفراغَ السابق للنشأة؛ إذ يحمل في طياته، بشكل غامض، مجرد احتمال، الطاقات التي ستتدفق بطريقة ثورانية لخلق الكون.

علاوة على ذلك، قد يُقال إن كوننا يحتفظ بشيء من الفوضى في نظامه الحواري نظام/ اختلال النظام/ تنظيم، وهي مصطلحات متكاملة ومتعارضة في آنٍ واحد، في عدم انفصال النظام عن اختلال النظام، في عمليات غير متوقعة، تُسمى فوضوية، تتجلى بشكل متزايد فيما يبدو أنه يتبع نظامًا لا تشوبه شائبة (مثل تغير سرعة دوران الأرض حول الشمس على مدى ملايين السنين)، في حالة عدم اليقين بشأن المستقبل، في الكوارث (اصطدامات النجوم، الموت العنيف للنجوم الضخمة، الثقوب السوداء). وعلى الأرض، في اصطدامات الكويكبات، في الانفجارات البركانية، في الانقراضات الجماعية للكائنات الحية في نهاية المرحلة المبدئية. أدرك (كاستورياديس) الصلة بين ما يُسمى بالفراغ والفوضى؛ إذ كثيرًا ما يستخدم تعبير «فوضى/ هاوية/ لا قاع». وبالنسبة له، فإن الفوضى/ الهاوية/ اللا قاع ليست بُعدًا منفصلًا عن الكون، بل هي «عكس» كل شيء، عكس كل مكان [...] ما هو وراء أو تحت كل وجود ملموس، وهي في الوقت نفسه القوة الخلاقة ـ كما يُقال في اللاتينية vis formandi ـ التي تُنشئ أشكالًا، وكائنات منظمة.

من اللافت للنظر الإشارة إلى سفر التكوين.

«Bereshit bara Elohim»: «في البدء خلق الله»...

Bereshit تعني «في البدء»، والتي تبدأ بالحرف الثاني من الأبجدية العبرية، وهي مرادفة للرقم2 وتُشكل البداية في حدّ ذاتها ثنائية، أي انفصال: انفصال الأرض عن السماء، كما يقول الكتاب المقدس، بل هو في الواقع فصل أشياء الكون بالزمان والمكان. أخيرًا، Elohim مفرد جمع، جمع أرواح أو آلهة في واحد، أو، من الناحية الفيزيائية، زوبعة تنبثق من قوى مترابطة متعددة. (لاحظ أن الدوامة شكل توليدي génésique في الكون، في تشكل السدم الحلزونية، وربما في أصل الحياة، تنظيم ينبثق من دوامة جزيئات مترابطة). ها نحن ذا مرة أخرى، مجازيًا، أمام حدث مُخْلَق/ مُخْلِق لكون ينفصل عن فراغه الأصلي (مع بقائه غير منفصل عنه) ويحمل في داخله هذا الانفصال بواسطة الزمان والمكان وداخلهما. وفقًا للغنوصية والقبالة أو الكابالا[1] وعالم اللاهوت المسيحي أوريجانوس، ينشأ العالم من انحطاط الكمال الإلهي أو تفككه، ويكون الشر في الأشياء المنفصلة. إذا كان الشيطان هو ما يفصل، فإن خلق العالم هو فعل شيطاني يُفرّق. ولكن هذا الفعل الشيطاني معزز بقوة الاتحاد التي تكمله إلهيًا؛ لأنه كما بدأنا نرى، فإن كل ما هو منفصل هو بطريقة معينة غير قابل للانفصال، وكل ما هو غير قابل للانفصال هو بطريقة معينة منفصل. يكمن تفرد حدث التكوين في أنه يُشكّل لهيبًا لا يُصدّق (fiat lux، «وكان نور») يُذكّر بـ«النار» الهيرقليطية الخالقة. ليس للكون خالق؛ فهو يخلق نفسه من انفجار أولي. هذا الخلق هو تحوّل من حالة من الغموض إلى حالة تنظيم. يمكننا النجاة

(1)القبالة هي علم يهودي غامض يتناول تفسير الكتاب المقدس اليهودي بشكل رمزي، وتُعتبر جزءًا من التراث اليهودي.

من أية نظرية خلق تصدر أحكامًا مُسبقة على خالق ذي طبيعة إلهية، سابق لكوننا ومتفوق عليه، والذي كان قد خلقه من الخارج. يمكن، بفضل مبدأ أوكام (مبدأ البساطة)، تطبيق فرضية الخلق الذاتي (التي يُخصّصها اللاهوت للإله الخالق) مباشرةً على كوننا نفسه: هذا الكون الذي خُلق ذاتيًا بخلق الجسيمات والأمواج والزمان والمكان في آنٍ واحد، ونظّم نفسه ذاتيًا بخلق حوارٍ متصارع وتعاوني في آنٍ واحد: نظام/ اختلال النظام/ تفاعل/ تنظيم.

يمكننا الهروب من التصميم العظيم. من أين أتى؟ مَنْ كان ليُشكّله؟ يمكننا الهروب من الخوارزمية الكبرى، وهي عبارة عن إسقاط التكنوقراطي للفكر الرياضي في أصوله. يمكننا الهروب من النية الأزلية مع اعترافنا تمامًا بوجود «إرادة حياة» Wille zum Leben في الكون، منذ ولادته، وفقًا لـ(شوبنهاور).

مبادئ النظام (قد يكون هناك بعض منها مجهول) هي «القوانين» الأربعة: الجاذبية، والكهرومغناطيسية، والتفاعلات النووية القوية، والتفاعلات النووية الضعيفة. اختلال النظام كلي الوجود في النشاط الحراري ـ المبدأ الثاني للديناميكا الحرارية ـ والأحداث واللقاءات عشوائية، أي إنها وليدة المصادفة.

المصادفة هي وليدة الفوضى التي لا تزال باقية في الكون. إنها موجودة في كل مكان، لكن الكون ليس مسألة مصادفة فحسب. قد لا تكون المصادفة مصادفة. يُعرّفها (غريغوري شايتان) بعدم قابلية الضغط الخوارزمي، بما في ذلك ما لا يمكن خوارزميته، ولكن من المستحيل معرفة ما إذا كانت المصادفة، «سبب كل المفاجآت» (ڤاليري)، مسألة

مصادفة. من اللافت للنظر أن كوننا لم يكن ليتحقق إلا من خلال «ضبط» دقيق للغاية لخمس عشرة من القيم الحيوية (إلى 1/ 106 ـ 0). يُمثل هذا الضبط الدقيق الظاهري حجةً لمؤيدي التصميم الذكي، الذي كان من شأنه أن يسمح بالحياة، وفي النهاية، ظهور الإنسان العاقل، الذي، وللمصادفة، كان ينتظره مستقبل باهر؛ لأنه ظهر في شباب شمس لا يزال عمرها المتوقع يتراوح بين أربعة وخمسة مليارات سنة. يعتقد بعض علماء الفيزياء الفلكية، مثل ميشيل كاسيه، أن عددًا لا نهائيًا من الأكوان ينبثق باستمرار من الفراغ، ولكن، بافتقارها إلى الضبط الدقيق التنظيمي، تنفجر كفقاعات الصابون. وبالتالي، فإن كوننا المضبوط جيدًا سيكون نتيجة مصادفة استثنائية.

الانبثاق العظيم

قال (بريغوجين)، محقًا: «إن الكون الموحد فحسب سيكون ثابتًا». قانون الكون ليس واحدًا: إنه قانون الحوار، القائم على تكامل التناقضات، والذي لا يلغي التناقضات بأي حال من الأحوال. يخبرنا قانون الحوار أيضًا أن كل ما هو منفصل متصل. تسعى جميع عمليات البحث عن القانون الأسمى للكل إلى إيجاد أساس لعالم لا أساس له؛ لأنه ينبثق من تنظيم هو نفسه منبثق من تدفق أولي للطاقة، وهو نفسه مشغل للتحول. تتجلى القوة الإبداعية للكون المادي من خلال مليارات الوقائع التي تنتج عن الاصطدام والتواطؤ بين الدفع التجاذبي الذي يُكتل الغبار الكوني لتكوين النجوم والاشتعال بالتفجير الناشئ عن تركيز المادة النجمية. ثم، لمليارات السنين، يخلق النجم نفسه وينظم نفسه باستمرار بين الانبجاس والانفجار. تنطلق القوة الخالقة في الولادة

المتواصلة لمليارات النجوم، ووفرة المجرات، وعلى الأقل على كوكب صغير، ولادة الحياة وازدهارها بوفرة.

ولكن الخلق لا ينفصل عن الدمار؛ يتزامن نشوء الجسيمات والنوى الذرية مع تصادمات المادة والمادة المضادة، مما يُفني المادة المضادة بالتزامن مع مبدأ الخلق/ التنظيم، يُطبَّق مبدأ التفكك والتشتت والموت، الذي يكشف عنه جزئيًا المبدأ الثاني للديناميكا الحرارية، والذي يُملي التدهور غير القابل للعكس للطاقات بمرور الوقت، على نطاق عالمي مماثل.

ومن هنا تأتي المفارقة التي بحثتها في موضع آخر[1]: يُنظّم الكون نفسه بالتفكك. وقد عبّر بلانكي (1872م) عن جانب واحد من هذه الحقيقة: «الكون كارثة دائمة». فهل جاءت حركة الخلق التنظيمي غير المسبوقة لمواجهة كارثة الانفجار الأولي؟

يحمل الكون في طياته مأساة لا تُسبر غورها، تنعكس في مصائرنا البشرية. ولا ترى جميع فلسفات العالم المتناغم إلا جانبًا واحدًا منه، وتتجاهل مأساته. ومع ذلك، يعيش الكون على نمط (هيراقليطس)، الحلاف والتوافق، والتناغم والتنافر. تتصادم المجرات، وتنفجر النجوم، وهددت الكوارث العالم الحي بأكمله في نهاية العصر البرمي. ليس التاريخ البشري تاريخ ميلاد الحضارات وازدهارها فحسب، بل تاريخ موتها أيضًا. الكون عبارة عن قوة خلق هائلة وقوة تدمير هائلة... يحمل الحوار بين النظام/ اختلال النظام/ التنظيم في طياته الحياة والموت.

---

(1) La Méthode, 1, pp. 33 - 93, Seuil, coll. «Points».

التكرار والإعادة والبدايات الجديدة ضرورية لوجود النجوم والكائنات الحية والبشر والمجتمعات. ولكن لا يقل عنها ضرورةً الولادة والابتكار والخلق. ولا مفرّ من التفكك والانحطاط والموت. الكون في نشوء دائم وموت دائم. الطريق يعود إلى نقيضه (الطاو). فالعالم المثالي مستحيل. سيكون نظامًا خالصًا، غير قادر على التطور. الكمال لن يكون لهذا العالم ولا لأي عالم آخر. يحتاج العالم إلى النقص، أي اختلال النظام، ومن ثم إلى الموت. النقص ضروري للعالم، يبدو أن أفضل العوالم الممكنة هو أيضًا أسوأها.

هل يُمكننا معرفة ما إذا كانا متوافقين مع بعضهما بعضًا؟

يمر الكون بمصير عظيم ورهيب، لكنه لا يخضع لتصميم عظيم من النوع التيلاردي[1]، ألا وهو التعقيد. إن تعقيد المادة في الحياة هامشي للغاية، ربما يقتصر على كوكبنا الصغير، وفي أفضل الأحوال، على بضعة كواكب من بين مليارات الكواكب الأخرى. هل يُعدُّ تعقيد الحياة البشرية هامشيًا للغاية في ظل طور كثيف في جميع الاتجاهات؟ من الصعب تصوره كغاية أساسية للكون. إذا كان هناك تصميم، فهو غامض، لا يُدرك. إنه يتجاوز كل منطق، إنه عبثي، لا شيء يمنعنا من الإيمان به بمقتضى عقيدة العبث.

نجد أنفسنا مُقحمين في لغز الكون وهو الانبثاق، وهي فكرة أشاركها مع مارك هاليفي[2]. لقد بُني الكون بأكمله، ولا يزال، على مبدأ الانبثاق.

---

(1) صفة تشير إلى الشخص الذي يتبع أو يتأثر بفكر أو فلسفة (بيير تيار دو شاردان)، وهو راهب فرنسي، عالم چيولوجي، وأخصائي في علم الأحياء.

(2) Marc Halévy, Un univers complexe. L'autre regard sur le monde, Oxus, 2011, p. 37 sqq., et aussi p. 105 sqq.

انبثق الكون حالما بدأ بتنظيم نفسه: فالمكان والزمان هما انبثاقان من تنظيمه، وليسا مكونين أساسيين. جميع صفات وخصائص هذا التنظيم (الجاذبية، الكهرومغناطيسية، التفاعلات النووية القوية والضعيفة) منبثقة، واقعنا منبثق، لا يوجد الزمان إلا بواسطة هذا الانبثاق ومن خلاله، ولا يوجد المكان إلا بواسطة هذا الانبثاق[1] ومن خلاله. الصفات الخاصة بكوننا هي انبثاقات خالية من أي وجود، خارجه، بما في ذلك في أسسه الميكروفيزيائية؛ حيث يتلاشى المكان والزمان والأجسام المنفصلة. الزمان والمكان موجودان وغير موجودين. لقد ثبت أن قوانين (نيوتن)، التي تُعدّ ركائز المعبد الفيزيائي، منبثقة إذا ما أخذنا في الاعتبار، على سبيل المثال، ما قاله (روبرت ب. لافين) بأن «هذه القوانين ليست أساسية، بل هي نتيجة تجمّع المادة الكمومية إلى مواد صلبة ومائعة ـ ظاهرة تنظيمية جماعية»... نعلم عن مجال (هيغز)[2] أنه يمكن إنشاء مجال ذي خصائص فيزيائية أو رؤيته ينبثق من الفراغ[3].

تختزل الفيزياء الكون في أجسام مُكونة مختلفة، من الجسيمات إلى النجوم، وفي «قوى» مثل الجاذبية والكهرومغناطيسية.

حددت الفيزياء قوانين النظام، واكتشفت مبدأ اختلال النظام من خلال

---

(1) Frédéric Nef, op. cit., p. 175 sqq.

(2) هو مجال كمي أساسي يُعتقد أنه يشغل كل جزء من الكون، ويُعرف بأنه يمنح الجسيمات الأخرى كتلها، إنه لا يُرى مباشرة، ولكن وجوده يفسر كيفية اكتساب الجسيمات كتلة عن طريق التفاعل معه.

(3) ربما يكون «الزمكان الذي يربط الكتل المرتبة في الكون خياليًا. إنه، كما اعتقد (لبنتز) ضد (نيوتن)، امتداد علائقي وليس ماديًا» (برنارد دوغيه)، http: / /bdugue.type-pad.com/).

الطاقة الحرارية وقانونها الحتمي المميت في المبدأ الثاني للديناميكا الحرارية. واكتشفت الطاقة المظلمة التي تقود الكون إلى تشتته. لكنها لم تتعرف على مبدأ التنظيم. ومع ذلك، فإن كل تنظيم يخلق صفات أو واقعًا جديدًا من خلال الانبثاق. وينتج (يخلق) النمو المُعقد للتنظيمات، مع كل تنظيم جديد، صفات جديدة منبثقة. وبالمثل، لم تُترجم الفيزياء، بمصطلحاتها الخاصة، الصراع الكوني الهائل بين الدمار/ التنظيم، والموت/ الحياة، الذي بدأ مع نشأة الكون ويستمر من خلالنا في صراع الخير والشر وتكاملهما: إنه إيروس (قوى الاتصال والترابط والاتحاد) وثاناتوس (قوى التفكك والصراع والدمار). إنهما يتصارعان بلا هوادة، لكنهما لا يستطيعان الانفصال أو البقاء بدون بعضهما. ما يحدث في الكون يستمر بشكل مختلف في البشرية.

قد يكون لدينا انطباع بأن الكون يحارب منذ بدايته من أجل حياته ضد موته. قال نيتشه: «كل ما يُولد يستحق الموت». بمجرد ولادته، يكون محكومًا عليه بالموت؛ فمن ناحية، سيؤدي عدم التنظيم في النهاية إلى تفكيك التنظيمات، ومن ناحية أخرى سيصل كوننا إلى نهايته، ولا نعلم إن كانت نهاية كل شيء، أم نهايته، ليولد كون آخر. إلا إذا كان ذلك لضمان العودة إلى فراغ النيرفانا الأولي.

ولكن، منذ (هابل)، كما ذكرنا، أثمر التقدم الهائل في الاكتشافات حول كوننا معرفةً غير مسبوقة.

كيف لا نُدهش ونتعجب من هذه النار التي تُكوّن مليارات النجوم وتُبقيها لمليارات السنين؟ في حياة النجوم، تُعدّ النار المُلتهمة مُنظّمًا مُشاركًا في

الوقت نفسه[1]. في النجوم، هناك جنون ناري وتنظيم تصنعه هذه النار. «كل شيء يصبح نارًا، والنار تتحول إلى كل شيء» (هيراقليطس).

بالطبع، نُدرك أن الحوار بين قوى الجاذبية الضاغطة والقوى الانفجارية المنفلتة عند الاشتعال يُحافظ على ضبط وحياة النجم. لكن ضبط النار مُذهل. لمليارات السنين، تزأر نار هائجة، وتبصق، وتتجشأ من نتوءاتها الهائلة، كما لو كانت تريد التهام كل شيء وتدميره، وهي تُروّض باستمرار. ومع ذلك، كما في الحياة، تحدث موتات عنيفة للنجوم.

كيف لا نُصاب بالذهول من الثقوب السوداء؟ «تُعلّمنا أن الفضاء يمكن أن يتفتت، كقطعة ورق إلى نقطة متناهية الصغر، وأن الزمن يمكن أن ينطفئ كشعلة ينفخ فيها المرء، وأن قوانين الفيزياء ليست مقدسة ولا ثابتة»، وفقًا للعالم العظيم (چون ويلر).

لقد حدد 70 تريليون نجم مرئي، وعدد أكبر من النجوم غير المرئية، و200 مليار مجرة.

يغمر نظامنا الشمسي فقاعة من الغاز المُخلخل، شديدة الحرارة، تبلغ مليون درجة، وتمتد على طول 1000 سنة ضوئية. ماذا تعني هذه الأرقام الهائلة، وماذا تعني أيضًا الأرقام «الفلكية» التي لا تقل عن ذلك للكون الميكروفيزيائي؟ وماذا عن جسمنا، المكون من مليارات الخلايا؟ ألا تخفي هذه الأرقام استمراريةً هائلة؟

---

(1) في داخلنا، على نحو مخفَّف، شيء من النجوم، والعاطفة تُعيدنا إلى إحياء لهيبها: «كل عواطفنا تعكس النجوم» (ڤيكتور هوغو). في داخلنا احتراق كما في النجوم، لكن في أجسادنا يكون الاحتراق أبطأ، في داخلنا، كما في النجوم، تزاوج بين الجنون المُحرِّق والعقل المُنظِّم.

بالتأكيد، من منظورٍ ما، يتفتت الكون إلى شظايا لا نهائية، ومن منظور آخر، قد يكشف عن كائنٍ حيٍّ هائل. كما هو الحال في أجسامنا، تموت الخلايا بأعداد لا تُحصى لتحل محلها خلايا أخرى، وتتحلل جزيئاتنا لتحل محلها أخرى، كذلك في الكون، تُعدُّ الثقوب السوداء، وموت النجوم، مظاهر للحياة الكونية.

هل هناك ذكاء انبثق من الفوضى؟ هل هناك شيء له طابع معرفي في النظام الكوني؟

لا ينبغي لنا أن نبحث عن الحياة في الكواكب، بل علينا أن نبحث عن الذكاءات الغريبة التي من الممكن أن توجد في الكون.

الثقوب السوداء في الفيزياء

لم يقتصر الأمر على المجهول والألغاز التي جلبها التقدم في المعرفة الفيزيائية بشكل متناقض، بل هناك أيضًا مشكلات أصبحت مستعصية على الحل، والتي ولّدتها هذه التطورات، ينطبق هذا على ضرورة، بل واستحالة، ربط النسبية الآينشتاينية بفيزياء الكم، فكل منهما يكشف جانبًا واحدًا فقط من الكون ويحجب الآخر. هناك صعوبات منطقية ورياضية تواجه المفهوم الكوني القياسي، الذي يُشكك فيه بشكل متزايد، مع أنه لا يمكن استبداله بعد؛ لذا ثمة طموح نحو «فيزياء جديدة» تُحدث ثورة في الفيزياء الحالية، تمامًا كما أحدثت النسبية الآينشتاينية وفيزياء الكم ثورة في الفيزياء القديمة.

وبانتظار ظهور هذه الفيزياء الجديدة، أصبح الزمن جوهريًا في الكون، بدءًا من الديناميكا الحرارية ثم فيزياء (هابل) الفلكية؛ فمنذ (لامارك)

و(داروين)، أصبح الزمن جوهريًا لفهم نشأة الحياة وتطورها المتسارع؛ ولفهم ظاهرة الأنسنة، وظهور الإنسان العاقل، ومصير الإنسان بأكمله.

والآن، دعونا نُدرك أن المحور الأساسي لكوننا، الزمن، لا يزال غير قابل للفهم وسيظل كذلك. لهذا السبب تجاهلته الفيزياء تجاهلًا تامًا حتى مجيء (سادي كارنو 1824م)، ثم أبقت عليه معزولًا لفترة طويلة في «أنظمة مغلقة» لمنعه من غزو الكون. وصل هذا الغزو مع (إدوين هابل) عام 1929م. منذ ذلك الحين، أصبح كل ما نعرفه عن ولادة الحياة وموتها قائمًا على ما لا يُفهم ولا يُسبر غوره.

مع ذلك، من المؤكد أن الكون يمتلك إبداعًا منهجيًّا هائلًا، يجمع وينظم عناصر متنوعة، ليخلق كلًّا متكاملًا يتمتع بصفات جديدة منبثقة، وينطبق الأمر نفسه على الجزيئات، خالقة الصفات المجهولة، والذرات التي ترتبط بها.

هكذا هو الحال مع النجوم، فهي لا تخلق فقط نيرانها ونظامًا من الكواكب التابعة، بل تخلق أيضًا ذرات جديدة داخلها، مثل ذرة الكربون من خلال الارتباط اللحظي لثلاث نوى هيليوم، وتخلق جميع المواد اللازمة للارتباط التنظيمي الذي يُسمى الحياة على الكوكب الثالث لشمس ضاحية فتية.

يشبه العالم البشري الكون، بتنظيماته، ونظامه، واضطراباته، وارتباطاته، وانقساماته، وجاذبيته، وغضبه، وانفجاراته، وولادة وموت الحضارات، وثقوبه السوداء، وإبداعاته، ومستقبله غير المؤكد.

يُترجم علم التنجيم شعورنا (الغامض الفطري) بأننا مرتبطون شخصيًا

بالكواكب... على أية حال، نحن أبناء الكون. يحمل كل منا في داخله جسيمات وُلدت في بداية الكون، وذرات تشكّلت في قلب النجوم المشتعل قبل شمسنا، وجزيئات تشكّلت على الأرض أو هبطت من النيازك، وأسلاف وحيدة الخلية، وحقيقيات نوى متعددة الخلايا، ثم حيوانات، وأسماكًا، وبرمائيات، وثدييات، ورئيسيات... نحمل تاريخ الكون وتاريخ الحياة، لكن ما يفصلنا عنهما هو تفرد ثقافتنا، ولغتنا، ووعينا. الكون في داخلنا، ونحن فيه.

أية مغامرة خاض؟ وإلى أية مغامرة أخذنا؟

الفصل الرابع

الحياة، ثورة في التطور

جميع الكائنات الحية تدرك أنها فانية؛ والدليل على ذلك أنها تصارع ضد الموت وتعرف كيف تصارعه، لكنها تفتقر حضوره الوعي.

نشأت الحياة بواسطة الكون المادي على كوكب ضئيل.

الحياة في حالة انقطاع واتصال مُنقطعة في آن واحد بالعالم الفيزيائي والكيميائي.

إنها متصلة من خلال تكوينها الذي تشكله ارتباطات جزيئية. وهي في حالة اتصال بعملية التعقيد الفيزيائي والكيميائي الأرضية، وهي متصلة منذ نشأتها، بفضل مجموعة من الظروف والأحداث الفيزيائية والكيميائية، بما في ذلك، بلا شك، ظروف حرارية ديناميكية خاصة (دوامات) أنتجت نوعًا من التنظيم، وعلى الرغم من كونه بين الجزيئات الكبرى بالكامل، إلا أنه أكثر اتساعًا وتعقيدًا من التنظيمات الجزيئية الكبرى. هذا التنظيم متصل بجميع التنظيمات الفيزيائية والكيميائية التي تنتج صفات جديدة أو منبثقة. وهو متصل بحوار النظام/ اختلال النظام/ التنظيم الخاص بالكون المادي، والذي سينتشر في النظم البيئية والمحيط الحيوي. إنها

متصلة بحوار الارتباطات والانفصالات التي ستخلق تعايشات وطفيليات ومجتمعات وتشتتات ومنافسة وصراعات. إنها متصلة بحوار الخلق/ التدمير الذي يعمل بالفعل في الكون.

ولكنها أيضًا غير متصلة، وبالتالي، وهذه هائلة في نوع التنظيم الخاص بها، التنظيم الذاتي الذي ينتج استقلاليته.

إنها غير متصلة في اعتمادها على بيئتها التي يجب أن تستمد منها الغذاء والمعلومات. إنها غير متصلة بطبيعة الصفات المنبثقة التي ينتجها التنظيم الذاتي، وهي الاستقلالية، وداخل الاستقلالية، امتصاص الطاقات الخارجية للتغذية وإصلاح الذات والتكاثر الذاتي. إنها غير متصلة بسبب الكفاءة المعرفية، وظهور الذكاء والحساسية. إن الانقطاع التنظيمي جذري: يشكل التنظيم الذاتي الحي في الحمض النووي إنغرامًا[1] وراثيًا ينشط نفسه كبرنامج، والذي يُطبق على البروتينات؛ هذا النظام المزدوج، الذي يجمع بين الحمض النووي الدائم والقابل للتكاثر والبروتينات الهشة والمؤقتة، هو خلق منظم (انبثاق) يولد منه الإبداع المتكاثر لأشكال وأعضاء الحياة التي في حالة انقطاع عن الخلق الفيزيائي الكيميائي، وهو منهجي. الحياة في حالة انقطاع؛ لأن لها غاية تنشط وإرادة قوية للحياة، سواءً لدى الفرد أو لدى النوع، مما يدفعهما إلى مقاومة الموت باستمرار وابتكار التكاثر. إنها متقطعة في علاقتها الوثيقة والخاصة بالموت، والتي هي في آن واحد مقاومة وكفاح وتكامل.

---

(1) هو مصطلح يُستخدم في علم النفس العصبي للدلالة على وحدة من المعلومات المعرفية المخزنة في الدماغ، يُعتقد أن إنغرام هو الوسيلة التي يتم من خلالها تخزين الذكريات كتغيرات فيزيائية أو كيميائية حيوية في الدماغ استجابةً للمنبهات الخارجية.

إذا كانت الحياة تدمج الخلق المادي، الذي يتجلى أساسًا من خلال الانبثاق الناتج عن التنظيمات، فإنها متقطعة خلال تقديم الخلق البيولوچي، الذي يتجلى من خلال التكاثر والابتكار، يتجلى هذا الانقطاع من خلال ظهور أنواع لا تُحصى ومتنوعة، نباتية وحيوانية، وفي خلق متعدد للكائنات الحية والأعضاء.

يا لها من قفزة مزدوجة من التعقيد في ظهور البيولوچي! تنظيم ذاتي ينتج الحياة باستمرار، وتكاثرٌ ذاتي يُضاعفها! كما سنوضح لاحقًا، فإن الحياة تُشكّل انقطاعها الأكثر جذرية في هذه القفزة المزدوجة من التعقيد: قفزة التنظيم البيئي الذاتي، وقفزة التكاثر الذاتي بالانشطار[1] أولاً، ثم الإنبات والتكاثر الجنسي.

الحياة ظاهرة استثنائية في الكون الفيزيائي والكيميائي، وتزداد غرابة؛ لأنها انبثقت منه بتوقفها عن التشابه معه. كل شيء فيها مُدهش: التنظيم، والتكاثر، والصفات المنبثقة. ومع ذلك، يُستهان بكل شيء: فمن خلال نظرته التحليلية، لا يرى عالم الأحياء سوى الجزيئات. كلمات مثل «البرنامج»، و«المعلومات»، و«المصادفة»، و«الجزيئات» تحجب تعقيد التنظيم الحي، وتقلل من شأن الحياة باختزالها في مصطلحات حاسوبية وكيميائية مفيدة بالتأكيد، لكنها مُختزلة. وحدها الروح الشعرية، التي تعود أحيانًا إلى كل منا، هي التي تُدهش وتعجب وتحزن من الحياة. التنظيم

(1) هو نوع من أنواع التكاثر اللاجنسي؛ وفي الانشطار الثنائي تنقسم النواة ميتوزيًا ثم تنشطر الخلية التي تمثل جسم الكائن الحي إلى خليتين يصبح كل منهما فردًا جديدًا، وتتكاثر بهذه الصورة كثير من الأوليات الجرثومية مثل الإميبيا والباراميسيوم والبلاسموديم واليوجلينا بالإضافة إلى الطحالب البسيطة والبكتيريا.

الذاتي، وهو مفهوم أساسي برز وتطور في منتصف القرن العشرين بين مفكري «الآلة الحية»، مثل (هاينز فون فورستر) و(هنري أتلان)، تجاهله علماء الأحياء الذين كان ينبغي عليهم استخدامه وتطويره. بل إن بعضهم، المتمسك بعلمهم الاختزالي، والذي لا يرى إلا المكونات الجزيئية، ذهب إلى حدّ التأكيد على عدم وجود حياة[1]. الحياة بديهة، بينما يكمن اللغز في هذه البديهة. نحن أنفسنا، في معظم الأحيان، نختبر بديهية الحياة من دون أن نتساءل عنها. ما الحياة؟ لماذا نعيش؟ ولكن بمجرد طرح السؤال، يصبح البديهي لغزًا أو غامضًا.

رد فعل الحياة على الموت: إعادة التوليد والتجدد.

على الرغم من أن البيولوچي فيزيائي كيميائي تمامًا في مكوناته، إلا أنه أصيل ومجدد في تنظيمه وصفاته. تُولد الحياة من التقاءات/ ارتباطات فيزيائية كيميائية، وتنظمها وتتحكم فيها، مع استمرار اعتمادها عليها. ينصاع البيولوچي المادي لجعله ينصاع له.

يبدو أن ولادته اعتمدت على عشوائية ومصادفات لا حصر لها أتاحت ارتباط/ اندماج عدد لا يُحصى من الجزيئات الكبيرة، بالإضافة إلى ظروف استثنائية للولادة: الدوامات والعواصف. حتى أن (فرانسيس كريك) تكهن بأن بعض الجزيئات وصلت عن طريق النيازك؛ وتشير فرضية جديدة إلى أن الاصطدام الكارثي بكرة نارية سماوية أدى، من بين أمور أخرى، إلى تكوين مجال مغناطيسي يحمي الغلاف الجوي، مما يُهيئ الحياة. اعتقد (چاك مونو) أن هناك ولادة فريدة على الأرض، نظرًا لأن جميع الكائنات

(1) في حين أن الحياة هي مجموعة الصفات المنبثقة عن التنظيم الذاتي للبروتين النووي.

الحية لها الشفرة الوراثية نفسها وتنظيم البروتين النووي نفسه. وبالتالي، ستكون الحياة منعزلة على كوكب صغير في الكون الهائل.

يعتقد البعض، مستندين في حججهم إلى الديناميكا الحرارية لـ(بريغوجين)، أن تكوين الحياة لن يكون استثنائيًا إلى هذا الحدّ، وبالنظر إلى احتمالية وجود وفرة من الكواكب ذات خصائص مشابهة لخصائص الأرض، فمن المؤكد وجود أشكال أخرى من الحياة في الكون، ولكن لم تُكتشف أية علامات على وجود حياة. وعلى الأرض، لم يظهر أي نوع آخر من التنظيم الحي غير ذلك الذي تحكمه علاقة الحمض النووي بالبروتين.

اعتمدت نشأة الحياة على مصادفات عشوائية للغاية، ولكن بمجرد ولادتها، أظهرت الحياة إرادة هائلة للعيش. هذا لأن الحياة، منذ ولادتها، تتغذى على الموت.

يتعرض التنظيم الذاتي للكائنات الحية للتفكك باستمرار، يتضمن نشاطه الدائم استهلاكًا للطاقة وعمليات تحلل تؤدي إلى الموت، ومن هنا تأتي الحاجة إلى استخلاص الطاقة والتنظيم والمعلومات من البيئة، لا يمكن الحفاظ على استقلالية الكائنات الحية إلا من خلال الاعتماد على بيئتها: ومن هنا يأتي المفهوم الرئيس للتنظيم البيئي الذاتي، وهذه هي المفارقة: الاستقلال يحتاج الاعتماد ليكون مستقلًا.

الحياة عمل دائم (نبض القلب، الدورة الدموية، التنفس الرئوي، بما في ذلك أثناء النوم) يستهلك طاقتها ويقودها إلى الموت، وفي الوقت نفسه يخوض صراعًا دائمًا ضد الموت. بما أن جميع الأنشطة الحية تستهلك الطاقة، فلا بدّ لها من إيجاد طاقة في بيئتها، أي أن تتغذى. الحياة

محكوم عليها بتغذية نفسها باستمرار. تشعر جميع الكائنات الحية، وحيدة الخلية، والنباتات، والحيوانات، بهذه الحاجة الماسة تكتسب النباتات طاقتها من أوراقها وتتغذى على جذورها. اضطرت الحيوانات إلى اختراع الزعانف والأرجل والأجنحة للبحث عن الطعام، وهي، كونها حيوانات، فريسة للصيد. يُنتج النشاط الحيوي الموت، الذي يُكافحه بإفناء حيوات أخرى، وفي حالة الكائنات متعددة الخلايا، عن طريق إماتة خلاياه الخاصة واستبدالها بخلايا جديدة.

كلما ازدادت الحياة تعقيدًا، أصبحت هشة، وتعرضت لتهديد الموت، وازدادت قدرتها على تنظيم نفسها لمقاومته، بما في ذلك استغلال موت خلاياها. وهكذا، فإن الخلايا التي تُكوّن الكائن البشري، والتي تخضع لعملية تحلل حتمية، تنتحر لتحل محلها خلايا أخرى. تُمكّن عملية التجديد هذه، وفي الوقت نفسه إعادة الشباب، من استخدام موت الخلايا لإحياء الفرد بأكمله: 500,000 خلية من خلايانا تموت كل ثانية؛ و30 مليون خلية كل دقيقة. ونحن نجهل ذلك تمامًا. قال (زافييه بيشا)، وهو مُحق تمامًا: إن الحياة هي مجموعة الوظائف التي تُقاوم الموت، ويجب أن نضيف: «بدمج الموت فيها». كما هو الحال في الكون، ولكن بطريقة جديدة، تبني الحياة نفسها بتدمير نفسها، أو تُدمر نفسها ببناء نفسها. وكما أن الحياة هي السير نحو الموت بمقاومته، فإن الحياة تعمل على العيش بالعمل على الموت، والحياة تعمل على الموت بالعمل على الحياة.

الزمن شرط الحياة؛ والموت ثمن يدفع من أجلها. الموت والحياة متعارضان وغير قابلين للانفصال. إن جزءًا من الحياة، وهو النوع، ينجو من الموت مع كل تكاثر، لكن الجزء الفردي يتحمله. كل احتضار مؤلم للغاية.

ولتأجيل موعد الموت، ابتكرت الحياة التكاثر، وهو في كل مرة انتصار مؤقت على الموت.

منذ البداية، «أدركت» الحياة أنها لكي تستمر، عليها أن تتكاثر، فابتكرت النظام الأكثر إثارة للدهشة: الانشطار، أي فصل أو قطع حلزون الحمض النووي المزدوج إلى نصفين، ثم تكوين حلزون مزدوج كامل في كل نصف؛ وهي عملية غامضة تتضمن انقسام كائن وإعادة تكوين كائنين من نصفين مولدين، بينما يجب أن يخضع التكاثر، وفقًا للعقلانية التقنية، لمنطق آلة تورنج التي تنتج وصفًا ثم إعادة إنتاج نفسها بناءً على هذا الوصف. إن التنظيم البيئي الذاتي للكائنات الحية مذهل بالفعل، لكن الأكثر إثارة للدهشة هو قدرته على إعادة إنتاج تنظيمه المعقد ذاتيًا، والذي يتجاوز بكثير التكاثر الذاتي لبعض البلورات. كأن الكائن الحي القديم قد تعرض لصدمة كادت أن تُحطمه، فتكاثر من هذا الانهيار. على أية حال، لا بدّ من وجود ذكاء إبداعي مذهل لابتكار هذا الحل.

منذ أول كائن حي، اختارت الحياة التكاثر: انشطار الكائنات وحيدة الخلية، ثم النشاط الجنسي للنباتات والحيوانات، كل شيء حي يجب أن يتكاثر. الموت هو الذي حفز الحياة على التكاثر، والتناسل، وحماية بذورها وبويضتها.

تطور التكاثر بطرق مبتكرة مذهلة بين النباتات والحيوانات. ثمة بذرة/ جرثومة مركزة من الموارد الوراثية للنبات في خلية مخصصة للتكاثر، ثم الإخصاب الجنسي بين عنصر ذكر وعنصر أنثى، مما يسمح بتطور التنوع داخل النوع الذي يمنح الحياة ثروة من الإمكانيات والقدرة على مقاومة المخاطر والأمراض. تصبح الحياة، بالتكاثر الجنسي، ثنائية في وحدتها.

سرعان ما يصبح الفرد فانيًا، أما النوع، بتكاثره المستمر، فيقاوم الموت بفعالية دون أن يتمكن في النهاية من النجاة منه.

يُعدُّ التكاثر (التضاعف، البذرة/ الجرثومة، الجنس، الحيوان المنوي، البويضة) استجابة حيوية للمخاطر المميتة العديدة الناجمة عن البيئة، ولحتمية التحلل لدى أي كائن حي. ولكن، في الوقت نفسه، منذ لحظة التكاثر، بالجرثومة أو البويضة، كان على التنظيم الحي أن يتقبل موت الفرد، ويستعد له من أجل بقاء النوع.

في بعض الأنواع، يكون موت الفرد شبه مُبرمج، أو على الأقل مُحددًا مسبقًا (موت أوراق الشجرة المبرمج).

لا يتوافق الاتحاد الحواري بين النوع والفرد فقط مع الهدف المزدوج المتبادل؛ حيث يكون الفرد غاية النوع والنوع غاية الفرد، بل يتوافق أيضًا مع الاتحاد الحواري بين خصمين جذريين: الحياة والموت. هناك إرادة هائلة للعيش، وذكاء مذهل للحياة في صراعها الدائم مع الموت، من أجل البحث الدؤوب عن الطعام وإنتاج أفراد جدد من خلال التكاثر. وقد انطوى الصراع ضد الموت الدائم على إهدار هائل، وإن كان ضروريًا، للجراثيم والأبواغ[1] والحيوانات المنوية والبويضات لضمان بقاء القليل منها على الأقل.

وإن الصراع ضد الموت مُميت أيضًا: فهو ينطوي على قتل كائنات حية أخرى، نباتات وحيوانات، من أجل التغذي عليها. فالحياة أشبه بحيوان الكاتوبليبا، وهو حيوان خرافي يتغذى بالتهام نفسه.

---

(1) أجسام صغيرة في اللازهريات وظيفتها إحداث التناسل اللاشقي.

يعتقد البعض أن الفرد وحده هو الملموس، وأن النوع مجرد تجريد. إلا أن النوع، الذي لا يوجد ويتكاثر إلا من خلال الأفراد، هو كيان ملموس يسعى إلى إدامة حياته من خلال حياة الأفراد والفعل التكاثري لهم، على الرغم من (بسبب) موتهم. ويعتقد آخرون أن النوع هو الحقيقة الوحيدة التي يكون الفرد خادمًا لها. لكن الفرد وحده هو الموجود هنا والآن. إنه الدازاين. فالفرد لا شيء بدون النوع، والنوع لا شيء بدون الأفراد. ينتج النوع أفرادًا، والأفراد، بالتكاثر، ينتجون النوع. إنها غاية دوارة؛ حيث يكون الفرد والنوع غايتين ووسيلة لبعضهما بعضًا. الفرد المفرد، المستقل، اللحظي، هو أيضًا، وإن اختلف، نفس أسلافه: تمتد الفردية نفسها عبر الزمن من خلال تعاقب أفراد مختلفين.

يبدو أن كل فرد حي يمتلك برمجية شبه مزدوجة؛ الأولى هي برمجية تأكيد الذات المركزية الذاتية، والتي، كما تشير الكلمة، تضعه في مركز عالمه. هذه الذاتية المركزية حيوية لإطعام نفسه والدفاع عنها وحمايتها. أما الثانية فيضعها في خدمة ذريته، وبالنسبة لعدد كبير من الحيوانات، تدمجها في «نحن» المجتمع أو زوجين قادرين على الإنجاب. الكائنات الحية ليست حية فحسب، بل هي أيضًا مسكونة بالحياة، ومن هذا المنظور، تكاد تكون مستحوذة عليها في نومها. نحن مسكونون ومستحوذ علينا بالآلة التي نسكنها ونستحوذ عليها.

هناك ما يشبه عبقرية مجهولة داخل الآلة. من المثير للإعجاب أن التنظيم الحي يعمل بطريقة لا تدركها حواسنا (إلا في حالات الانزعاج أو الألم)، ولا يدركها وعينا. بمجرد مضغ الطعام، يختفي من وعينا ويبدأ جهاز هضمي معقد بالعمل. تُفرز العصارات المعدية، وتهضم المعدة

الطعام وتنقله إلى الأمعاء. ثم يؤدي الكبد والمرارة والطحال والكلى وظائفها، ولا يعود وعينا إلى الظهور إلا عندما تحفزه الرغبة في التبول أو التبرز. لسنا جائعين؛ الجوع هو الذي يسيطر علينا؛ وعندما نستيقظ، تبسيط علينا اليقظة. ولآلة جسمنا معرفتها وحكمتها الخاصة. ألا تميز الحيوانات غريزيًا النباتات العلاجية والنباتات السامة؟

الذكاء والحساسية قيد الحياة

تطور الكائنات الحية، بما فيها النباتات، كل بطريقته الخاصة، القدرات المعرفية للحياة.

لفترة طويلة، تجاهلنا ذكاء وحساسية الكائنات الحية، بما في ذلك ذكاء وحساسية إخواننا الثدييات. ولزيادة تقديرنا للبشر، رفضنا، تحت مسمى «التشبيهية»[1]، أي شيء يدرك المعاناة واللذة لدى الحيوانات، بينما في الواقع، ورثنا وطورنا بشكل مفرط المعاناة واللذة الخاصتين بالحياة الحيوانية، وخاصة الثدييات.

الحيوان = مُنح نفسًا أنيما (anima) وروحًا أنيموس (animus): أكد (باتيسون) على هذه النقطة الأخيرة. (أكرر، النفس ليست جوهرًا، بل هي انبثاق واعٍ وحساس للنشاط الدماغي). كل مَنْ يعيش مع الكلاب أو القطط يعرف أن لهذه الحيوانات شخصية، وحساسية، وروحًا. لقد تمكنا، مؤخرًا جدًّا، من التعرف على الذكاء، والاستراتيجية، والحساسية، بالإضافة إلى

(1) هو إسناد خصائص السلوك البشري أو شكله إلى كيانات أخرى مثل الآلهة والحيوانات والأشياء والظواهر والأفكار وحتى الكائنات الأخرى من العالم الآخر حيثما كان ذلك مناسبًا.

قدرات التواصل، بين أفراد النوع نفسه، ليس فقط لدى أبناء عمومتنا من الرئيسيات وأقاربنا من الثدييات، ولكن أيضًا لدى النباتات. جميع الأنشطة الحية، من وحيدة الخلية إلى متعددة الخلايا، نباتية كانت أم حيوانية، لها بُعد معرفي؛ لذا فإن بناء القدرة على التقاط الطاقة الشمسية واستخدامها، في وقت مبكر جدًّا من تاريخ النبات، يستلزم فهمًا معرفيًا للمزايا الطاقية للإشعاع الشمسي ومزايا الكلوروفيل في التقاط/ استيعاب الطاقة. ومع ذلك، لا تمتلك النباتات أدمغة ولا شبكات عصبية. فالحساسية والذكاء غير واضحين في التفاعلات الدائمة لجميع خلايا النبات.

وهكذا، تحفز جميع خلايا النبات استراتيجيات وتكتيكات (للبحث عن الشمس، ولمنع النباتات الأخرى من النمو بالقرب منها، ولحماية نفسها). تعرف نباتات نفس الفصيلة كيفية نقل المعلومات الدفاعية لبعضها البعض ضد الطفيليات. على سبيل المثال: في حالة تعرض شجرة السنط لهجوم من حيوان عاشب، تزيد معدل مادة التانين، مما يجعل أوراقها سامة للظباء، ويحذر أشجار السنط المجاورة لها من مسافة بعيدة.

ويتحقق التواصل الكيميائي من خلال الفيرومونات[1] والأصوات والأغاني والرقصات (النحل). من الممكن تمامًا، كما لاحظت المغنية (إيزابيل سابريه) من خلال الضفادع في حديقتها بماناوس، الأمازون، أن تمتلك الطيور والكلاب والحيوانات الأخرى، بينما لا نسمع سوى أصوات متكررة وغير مفهومة، مفردات وقواعد نحوية مرتبطة بلغة الإشارة.

---

(1) الفيرومونات هي مواد كيميائية يفرزها الحيوانات (بما في ذلك البشر) لتبادل رسائل كيميائية مع أفراد من النوع نفسه، هذه الرسائل تؤثر على سلوك الحيوانات وتفاعلهم مع بعضهم البعض، مثل التزاوج أو التجميع أو الدفاع عن النفس.

وبشكلٍ أعم، جميع الكائنات الحية، بما في ذلك البكتيريا، وربما حتى الڤيروسات، تتمتع بالذاتية، لأن كونه ذاتًا[1] تعني وضع الذات في مركز عالمها (بمعنى آخر، مركزية الذات)، مما يحفزها على التغذية والدفاع عن نفسها والكفاح من أجل حياتها. يُضاف إلى ذلك أن الذات تعني أيضًا القدرة على المشاركة في الـ«نحن»، جماعة، مجتمع. وهذا ينطبق بالفعل على البكتيريا.

تتمتع البكتيريا بقدرات معرفية وتواصلية وتنظيمية. فهي تخبر وتساعد بعضها البعض من خلال مشاركة خيوط الحمض النووي. ولعل انتقال الحمض النووي المقاوم للمضادات الحيوية هو ما يسمح لعدد متزايد من البكتيريا بتجنب التهديد القاتل لمبيد البكتيريا. لا تتواصل البكتيريا فحسب، بل تتعاون وتنظم نفسها فيما بينها[2]. وقد أدت فرضية وجود كائن بكتيري جماعي يسود على الأرض، وتحت الأرض، وفي البحر، وفي أمعائنا إلى ظهور فكرة أن جميع أشكال الحياة متعددة الخلايا، بما في ذلك كائناتنا، تخضع لسيطرة هذا الكائن البكتيري الجماعي[3]. علاوة على ذلك، فإن قدرة الڤيروسات على التحور، وخاصة ڤيروسات الإنفلونزا والإيدز، وبالتالي قدرتها على التهرب من دفاعات الكائنات الحية، ليست وليدة الصدفة فحسب؛ بل هي أيضًا نتاج قوة إعادة تنظيم، ربما جماعية، في حال فرضية وجود مجتمع ڤيروسي كوكبي، كيان يتمتع بالذكاء، تمامًا كما كان هناك مجتمع كوكبي من البكتيريا.

---

(1) Cf. La Méthode, 2, op. cit., p. 155 - 200.

(2) Cf. les expérimentations confirmatrices de Bonnie Bassler, université de Princeton.

(3) Cf. Lynn Margulis et Dorion Sagan, L'Univers bactériel, Albin Michel, 1989.

في الوقت نفسه، أوجدت الحياة داخل المجتمعات تضامنات بين الأنواع، وخاصة في المجتمعات الحيوانية، وعلاقات تعايش مفيدة لبعضها البعض، كما هو الحال بين البكتيريا وأمعائنا، وطفيليات متعددة، بالإضافة إلى أنظمة بيئية، وشبكات معرفية/ تنظيمية، تتكون من تفاعلات متبادلة متكاملة ومتنافسة ومتضادة، تُتوج بالتنظيم الكلي للمحيط الحيوي[1].

الخلاصة

الحياة هامشية ومنحرفة داخل العالم المادي. هناك قفزة هائلة في التعقيد بين التنظيم الجزيئي والتنظيم البيئي الذاتي الحي. من منظور معقد، يشكل مجموع الصفات المنبثقة واقع الحياة.

الحياة ذكية، بارعة، مبدعة، رائعة، مليئة بالمعنى، وفي الوقت نفسه، غير مفهومة، عبثية، لا معنى لها، وفظيعة. تنظيم الكائنات الحية تحفة فنية في التعقيد، لكن الحياة جنون محض.

نتمنى بشدة أن نجد معنى للحياة، ولكن إن وُجد معنى فهو ليس بالمعنى الذي نفهم به كلمة «معنى»، بل هو مختبئ في أعماق الجنون. المعنى الوحيد للحياة يكمن في غايتها: أن نعيش من أجل العيش، وهي غاية لا يمكن العثور على معناها.

---

(1) Cf. Méthode, 2, La Vie de la vie, op. cit., p. 19 - 77.

الفصل الخامس

الإبـداع الحي

يفترض منطقيًا أن العين قد وُجدت
مسبقًا ككل من أجل تطور أجزائها المكونة.
القوة الخلاقة بعيدة كل البعد عن أي
تصنيف. وتبقى في النهاية لغزًا لا يُسبر غوره.

(بول كلي)

إن خلق الكون الفيزيائي أمر منهجي: فالأنساق، الناتجة عن الترابط المُنظّم لمكونات متنوّعة، تخلق انبثاقات، وصفات جديدة، مجهولة للعناصر المنعزلة. تنشأ الحياة من هذا الخلق المنهجي، من الترابط المُنظّم لمكونات جزيئية لا تُحصى ومتنوّعة، وتستمد صفاتها الخاصة، بما في ذلك التنظيم الذاتي نفسه، من الخلق المنهجي. ولكن، بمجرد ولادتها، يمتلك التنظيم الذاتي الحي خلقًا جديدًا، قادرًا على خلق الأعضاء وتحويل الكائنات الحية: الخلق الحي.

الحياة خالقة الإبداع

هناك حوار خاص بالتنظيم الذاتي الحي: يضمن أحد المنطقين ثبات

كل من النوع والفرد، بينما يسمح الآخر بإعادة تنظيم وراثية خلاقة في قلب الجهاز التناسلي، الذي انبثقت منه ابتكارات التطور التي لا حصر لها: الخلايا حقيقية النواة، والخلايا متعددة الخلايا، واستيعاب الكلوروفيل في النباتات، مما يسمح لها بالتقاط الطاقة الشمسية، والانفجارات الزهرية، وفي الحيوانات، الزعانف والأرجل والأجنحة والدماغ والجهاز العصبي والكبد والكلى، إلخ.

على ما يبدو، بناءً على التكاثر، الذي يديم نفسه بشكل متطابق ويعارض أي تعديل، يجب أن يستبعد قانون الحياة أي خلق ابتكاري. الآن، دعونا نلاحظ أنه بينما يُعد الخلق المبتكر، مقارنة بالتكاثر المتطابق، وهو ظاهرة طبيعية، ظاهرة منحرفة وهامشية ونادرة، فقد أصبح القوة الدافعة الحاسمة وراء التطور البيولوچي الخصب والوافر، أي تاريخ الحياة نفسه.

يتجلى الإبداع أثناء التكاثر، أي إعادة خلق كائن حي جديد؛ يمكن تحفيزه بحدث عشوائي، كدمج ڤيروس في الحمض النووي (DNA) يوفر معلومات مبتكرة؛ ويمكن تحفيزه بشكل خاص بالتحديات البيئية. فبمجرد نشوء صفة جديدة، عضو جديد، سينتشر هذان العضوان تحديدًا من خلال التكاثر، الذي في العادة يمنع الجديد، ويضع نفسه في خدمة الجديد، مضاعفًا إياه، ومن هنا تعدد الأنواع النباتية والحيوانية. في الطبيعة، ليس فقط الحيوانات، بل النباتات أيضًا، توجد أشكال هائلة من المعرفة مرتبطة بشكل من أشكال الإبداع، مثل ابتكار الزهور التي «تعرف» كيف تجذب الحشرات المُلقحة، ولكن هذا ينطبق أيضًا على الحشرات، كما هو الحال بالنسبة للطيور والعديد من الأنواع الأخرى. تكشف لنا حالات لافتة المعرفة/ الإبداع النباتيين بدون دماغ أو جهاز عصبي أن رابط الإدراك/

الإبداع (حيث يسمح الإدراك بإبداع يُنتج إدراكًا جديدًا) متأصل في التنظيم البيئي الذاتي الحي، مع أنه لا يُفعّل إلا في حالات استثنائية، ويبدو دائمًا تقريبًا، استجابة لتحدٍّ مُميت أو طموح عميق. ينشأ الإبداع من خلال التضافرات والتوليفات. إن الاتحاد الوثيق بين كائنين وحيدي الخلية، أو بالأحرى امتصاص أحدهما للآخر، يخلق الخلية حقيقية النواة، ذات الوراثة المزدوجة؛ حيث يكون الثاني في الميتوكوندريا، وهي بقايا خلية ممتصة. ستتحد الكائنات وحيدة الخلية بشكل دائم لتشكل كائنات متعددة الخلايا، والتي بدورها ستُنوع خلاياها. لا بدّ أن المصادفة، أو قيود البيئة، لعبت دورًا في تكوين الكائنات متعددة الخلايا، وهي مجموعة جماعية أكثر قدرة على تحمل المخاطر. يتجلى الإبداع في اختراع عضو أو في إعادة تنظيم مبتكرة بانبثاقها الخاص. تبرهن التطورات الرائعة والكثيفة لمملكتي النبات والحيوان على ما أسماه (برغسون) «التطور الخلّاق»، والذي يمكن تسميته أيضًا «الخلق التطوري».

منذ ظهور الكائنات وحيدة الخلية الأولى، ولّدت الحياة تكاثرًا لملايين الأنواع، منها 8.7 مليون نوع حي لا يزال موجودًا، بما في ذلك 2.2 مليون في البيئات المائية. لقد خلق أشكالًا مذهلة، السلاحف، القواقع، الأخطبوطات، العقارب، الألوان الأكثر بريقًا، الأحجام الأكثر تطرفًا، من البكتيريا إلى الفيلة، بما في ذلك المن، من ساق العشب إلى أشجار السيكويا، الأجهزة الأكثر براعة، مثل شبكة العنكبوت المنسوجة، الأسلحة الأكثر إبداعًا، مثل سم الثعبان أو الدبور إلى قرن وحيد القرن. من خلال الولادات، بما في ذلك ولادة خلايا الكائن الحي، تُعد الحياة بداية دائمة. إعادة إنتاج الشيء نفسه (العودة هي حركة الحياة: الطاو)، تكاثر

متطابق، يتعدل أو يتحول في لحظات حاسمة، من أصل خارجي و/ أو داخلي. إن الاتحاد الحواري بين مبدأ الثبات ومبدأ التحول سمة جوهرية للحياة.

التحدي

لطالما كان الإبداع الحي استجابة لتحدٍّ مميت. وقد تجلى في القدرة على حل مشكلة حيوية.

كان أول اختراع عظيم للحياة بدون دماغ أو جهاز عصبي. كان اختراع التمثيل الضوئي بواسطة الكلوروفيل، الموجود بالفعل في بعض الكائنات وحيدة الخلية (الدياتومات والطحالب الدقيقة)، والذي انتشر في جميع أنحاء مملكة النبات الشاسعة؛ يسمح هذا الاختراع الرائع للنباتات بامتصاص طاقتها من ضوء الشمس.

علاوة على ذلك، خُلقت الجذور لامتصاص العصائر المعدنية.

تجلى الإبداع في فن التحول: من البذرة إلى النبات، ومن البيضة إلى الحيوان البالغ، ومن جنين الثدييات في مشيمته إلى البالغ، وأخيرًا، من اليرقة الزاحفة إلى الفراشة واليعسوب.

لقد بلغ هذا الإبداع تعقيدًا وبراعة، وهو ما لم تبلغه العبقرية البشرية (بعد؟): العبقرية البشرية، التي ابتكرت الكثير، لم تنجح بعد في خلق بكتيريا، ولا أصغر نبات، ولا أصغر حيوان.

بما أن مملكة الحيوان لم تتمكن من الحصول على الطاقة الشمسية، فقد اضطرت إلى اختراع وسائل للحركة للبحث عن الطعام والهروب

من مفترسيها: الزعانف والأرجل والأجنحة. كان عليها أن تخترع فكًا أو منقارًا لإمساك الطعام، وأن تطيل منقار اللقلق أو الطوقان، وأن تطيل رقبة الزرافة أو خرطوم الفيل؛ واخترع جهازًا هضميًا خارقًا للامتصاص وإخراج فضلاتها. واخترع أعضاء الحواس: البصر والسمع والشم والجهاز العصبي والدماغ. اخترع الأشكال والألوان والروائح ليُجمل نفسه، ويخيف الأعداء، ويجذب شريكًا من الجنس الآخر.

كان انتشار الأوكسچين من النباتات إلى الغلاف الجوي سمًّا تحول في عالم الحيوان إلى مُزيل سموم خلوي، من خلال التنفس والدورة الدموية. أدى انخفاض مستوى سطح البحر إلى ظهور البرمائيات في الأسماك، التي حوّلت خياشيمها إلى رئات.

ربما حفّزت الكوارث الطبيعية الإبداع الحي. وهكذا، فإن الكوارث التي وقعت في نهاية العصر البدائي، والتي يُعتقد أنها دمرت 90% من الأنواع، أدت إلى نشوء أنواع جديدة.

ليس الإبداع مجرد استجابة لتحدٍّ أو مشكلة، بل قد يكون أيضًا إشباعًا لطموح. فهل يُمكن أن يكون ما أدى في كثير من الأحيان إلى ظهور أجنحة في الكائنات الأرضية نابعًا من طموح لتجربة خفة ونشوة الطيران؟

من المؤكد أنه قد يظن المرء أن الطيران يُمكّن المفترس من العثور على فريسته الأرضية بشكل أفضل، وللفريسة من الفرار منها بشكل أفضل؛ لكن يبدو لي أن الأجنحة، بخلاف الأرجل والزعانف، لا تستجيب لضرورة المحرك الأساسي للحياة أو البقاء؛ لذلك، يبدو لي أن الرغبة في الطيران أنتجت أجنحة لعدد لا يُحصى من الحشرات، وأدت إلى ظهور أجنحة

في فرع من الزواحف التي أصبحت طيورًا، بل ومنحت أجنحة لثدييات مثل الخفافيش. يمكننا أن نتأمل بلا نهاية التحول المذهل الذي يحوّل يرقة زاحفة إلى يعسوب خفيف أو فراشة متلألئة.

أليس من الممكن أن تكون رغبة غامضة، لا واعية، لكنها عميقة، نابعة من الكائن بأكمله، مصدر كل هذه الإبداعات؟

لا يمكن اختزال ترف كل هذه الزخارف والألوان، من الخنفساء الصغيرة إلى الطاووس، في مجرد إغواء جنسي لمخلوق متجانس معه، وفي كل الأحوال، سيتضمن هذا بُعدًا جماليًا. اقترح (أدولف بورتمان) مفهوم Selbstdarstellung [1] أي «تقديم الذات أو عرض الذات»، وهو الميل الفطري للكائنات الحية لتقديم نفسها، ليس فقط كمخلوقات متجانسة أو أعداء، بل لنفسها أيضًا، وهو ما يتوافق مع رغبة الإنسان في جعل نفسه جميلًا. في الواقع، نُوسّع نحن ـ البشر ـ حدود جماليتنا الحيوانية من خلال وشومنا، وزخارفنا الملونة، كما نمنح أنفسنا، من خلال ملابسنا، مجموعة متنوعة من الجلود القابلة للنزع. من غير المعقول اختزال هذا الكمّ الهائل من الابتكارات الخلاقة إلى طفرات چينية بسيطة

(1) أدولف بورتمان، الشكل الحيواني (1948)، أعيد طبعه بواسطة المكتبة، 2013.
يعبّر عرض الذات (Selbstdarstellung) عن فكرة أن الكائنات الحية تشعر بالحاجة إلى عرض ذاتها، عرض ذاتها لأقرانها وللعالم الذي يرحب بها ويتفاعل معها، يعبر الشكل الحيواني عن حاجة حيوية لعرض ذاته، وإظهارها: لذا، فإن تجلّي الذات شرطٌ أساسي للحياة كلها: الظهور، إظهار ماهية المرء فقط. إن الوجود الخالص والبسيط (الوجود الإيجابي البسيط) ليس كافيًا: من الضروري أيضًا «الظهور»، أي إعطاء شكل، في مجال المرئي (ولكن يمكن أن يتعلق أيضًا بتجليات صوتية أو شمية)، لتفرد ما هو عليه ـ ليس، في هذه الحالة، وجوده الفردي، ولكن خصوصيته كنوع، وخصوصيته المحددة.

ناتجة عن المصادفة، مع أن المصادفة قد تؤدي دورًا في ذلك. يعزو علماء الأحياء الجزيئية وعلماء الوراثة والداروينيون جميع ابتكارات الحياة إلى طفرات ناتجة عن المصادفة وحدها، ويحصرون أنفسهم في رؤية التكيف فقط فيما هو أكثر من مجرد تكيف: الابتكار. يمكن للابتكار أن يكون خلاقًا في التكيف مع البيئة؛ ويمكنه أيضًا أن يخلق تكيفًا للبيئة مع ذاته (كما في بناء أعشاش الطيور أو في هندسة القنادس، وبناء الأكواخ والسدود). يخشى كثير من العلماء أن يشير الإبداع الحي فقط إلى نظرية الخلق، أي إلى تصميم إله خالق، بينما يكمن الإبداع، كما اعتقد (سبينوزا)، في صميم الطبيعة الحية.

أعتقد أن هناك إمكانات إبداعية كامنة داخل الكائنات الحية تستيقظ على تحدٍّ ورغبة وطموح. يعمل الابتكار الخلاق في المرحلة الجنينية من التطور؛ حيث يصبح عمل النوع هو تكوين الفرد.[1]

لا يمكنني أن أختم هذه الفقرة عن الإبداع بنسيان جسدي، أي جسد كل إنسان عاقل/ مجنون. هذا الكائن الحي هو ثمرة التطور الإبداعي من الفقاريات، ثم الثدييات، وأخيرًا الرئيسيات، وصولًا إلى جنسنا البشري. إنه آلة مذهلة، وكما ذكرت، تملكني أكثر مما أملكها. يا له من براعة، يا له من تعقيد، حتى في عملية الهضم؛ حيث أفرز، من دون قصد، لعابًا حول الطعام الذي تطحنه أسناني، ثم تُشبع لقمة الطعام بعصارات المعدة، وتبدأ رحلة هائلة تنتهي في الأمعاء الغليظة. يا له من تعقيد في إنتاج الدماغ للهرمونات! يا له من جهاز فائق التعقيد هذا الدماغ، الذي لا نعرف منه

(1) بما أن هناك إبداعًا واضحًا في الحياة، فإن هذا لا يمكن أن يستبعد إبداعات أخرى في أماكن أخرى، ولكن لا أحد يستطيع أن يؤكد ذلك اليوم.

سوى مظاهره الكهروكيميائية، بينما هو ينتج المشاعر والأفكار! حتى أكثر الآلات تطورًا التي نصنعها لا تزال بدائية مقارنة بهذه الآلة التي صنعتنا وتعيد تشكيلنا في كل لحظة.

الحياة المعممة

يُلغي علم الأحياء الجزيئي مفهوم الحياة، بينما في رأيي يجب تعميمه خارج نطاق الكائنات البيولوچية البحتة: الكائنات وحيدة الخلية، والنباتات، والحيوانات. كوكب الأرض كيان چيو - حيوي - فيزيائي يتمتع بحياة خاصة به. قد يتمتع بالذكاء... حينها ربما لن تكون «الأطباق الطائرة» مجرد رواد فضاء، بل انبعاثات من الأرض. النظم البيئية هي تنظيمات ذاتية حية، قائمة على مزيج من الكائنات الحية في بيئة معينة، والمحددات الچيومُناخية لتلك البيئة.

المجتمعات البشرية كائنات حية[1] تتمتع بتنظيم بيئي ذاتي. فهي في آن واحد آلات مادية، وآلات حية، وآلات اجتماعية.

اللغة ضرورة أساسية للتواصل في جميع المجتمعات البشرية؛ وفي الوقت نفسه، تتميز بخصائص حياتية معينة: التطور، والتحولات؛ والكلمات تموت، وتولد، وتنقرض، وتتغير صيغ التعبيرات. تميل اللغة إلى التفرع إلى فرعين: الفرع النثري بوظيفته النفعية، والفرع الشعري الإبداعي، الذي يُضفي عاطفة جمالية. اللغة العامية فرع شعري، نابض بالحياة في إبداعه. أما الفرع النثري، فيميل إلى فقدان حيويته، ليصبح

(1) Cf. La Vie de la vie, op. cit., p. 236 sqq.

«لغة جامدة»، «لغة خشبية»، لا سيما في اللغات الإدارية والتكنوقراطية والاقتصادية.

إن الطريقة التي تشكلت بها اللغات، ونظمت، وتطورت بها، دليل على قوة إبداعية هائلة، تغذيها عقول ناطقة لا حصر لها.

أخيرًا، تنتج العقول البشرية في أي مجتمع وتغذي كائنات حية تتحكم بالعقول التي خلقتها: الآلهة والأفكار. الآلهة مجسمة مثل الإنسان أو بنية شبه حيوية؛ قوتها تفرض على البشر العبادة والطاعة والتضحية، بما في ذلك أرواحهم، وقتل غير المؤمنين أو الكفار، يمكن للأفكار[1] أن تكون ذات سيادة واستبدادية على حدٍّ سواء: وهكذا، كانت الشيوعية دينًا متسلطًا للخلاص الأرضي.

إن عقولنا وأنشطتنا هي التي تنتج وتغذي كل هذه الحيوات التي تغذينا، والتي، أحيانًا، كما الآلهة والأفكار، تستعبدنا.

الخلاصة

إن أكثر فروع الاكتشافات خصوبة حول التنظيم الحي، وهي البيولوچيا الجزيئية وعلم الوراثة، قد حجبت فكرة الحياة ذاتها، وأصبحت غير مرئية لأولئك الذين لا يرون سوى الجزيئات والچينات والبرامج والطفرات العشوائية والانتقاء الطبيعي الذي يسمح بإخفاء الإبداع، خوفًا من وهم الخلق.

لقد تم الاستهانة بالحياة والاستخفاف بها.

---

(1) Cf. La Méthode, 4, Les Idées.

ومع ذلك، منذ ستينيات القرن العشرين، أتاح علم سلوك الحيوان التعرّف على تعقيد السلوكيات والعلاقات المتبادلة بين الثدييات والطيور والأسماك، ناهيك عن العمل على النحل والنمل والنمل الأبيض. كشف علم نبات جديد أن تعقيد تطور النبات لا يقل عن تعقيد تطور عالم الحيوان، وبالمناسبة أُحيّي ذكرى (چان ماري بيلت). لقد بدأت بكشف ذكاء وحساسية النباتات التي وصفناها.

علينا ألا نُقلل من شأن الحياة ونُدهش منها. تُفاجئنا الحياة بتعقيدها واستقلاليتها وإبداعها، الذي ظهر فجأة وبشكل هامشي في الكون المادي.

في هذا الكون الذي يفتقر هدفًا واضحًا، والذي لا يخضع إلا للحوارية نظام/ اختلال النظام/ تنظيم، أدخلت الحياة هدفها المزدوج في حلقة مفرغة: التكاثر لخلق أفراد أحياء، وخلق أفراد أحياء للتكاثر.

إذا لم نتمكن من تصوّر هدف عظيم مُحدد لهذا التطور المتنوع والكثيف، فعلينا أن نلاحظ عددًا لا يُحصى من الأهداف المتباعدة والمتقاربة (في النظم البيئية والمحيط الحيوي)، والمتكاملة والمتعارضة. ومرة أخرى، نجد فكرًا هيراقليطيًا حول اتحاد الانسجام والتنافر.

نعرف الحياة بشكلٍ أفضل أكثر فأكثر، لكنها لا تزال غامضة بالنسبة لنا بشكل متزايد.

الحياة انبثاق، أي مجموعة من الصفات.

لا يمكن اختزال الحياة فيما هو بيولوچي، أي في الكيانات النووية البروتينية التي نتكوّن منها.

الحياة متعددة الأشكال؛ لأن المجتمعات واللغات والثقافات والأفكار والآلهة كيانات حية.

الحياة تنافر وانسجام نغمي.

الحياة ذكية، حساسة، خلاقة.

الحياة تنظيم، الحياة قاسية، الحياة رائعة، الحياة مجنونة.

في تجارب الحياة اليومية، ننسى طابع الحياة المدهش. في أجواء الحياة المملة، ننسى أن الحياة شعر، لكن في لحظات نشوتنا، ننسى أنها قاسية، رهيبة، مريعة.

نعلم أن العيش شقاء، وأن العيش فرح، لكن كل مصطلح منهما يحجب الآخر.

فقط الوعي التام، والحساسية العالية، يسمحان لنا بمعرفة أن الحياة رائعة ورهيبة.

الفصل السادس

البشر الذين يجهلون أنفسهم[1]

مَنْ نحن، ما نحن؟

كان بإمكاني استعارة عنوان الكتاب القديم لـ (أليكسيس كاريل)، الذي صدر قبل خمسة وسبعين عامًا، «الإنسان، ذلك المجهول»، مع أن ما هو معروف اليوم كان مجهولًا بالنسبة له آنذاك. لكن ما هو معروف اليوم يبقى مجهولًا، مع أنه قابل للمعرفة؛ لأن مدارسنا، وثانوياتنا، وجامعاتنا لا تُعلّمنا ما هو الإنسان. مع ذلك، تراكم على مدى الخمسين عامًا الماضية كمّ هائل من المعرفة عن البشر، وأصولهم، وطبيعتهم، وتعقيداتهم، لكنها متناثرة ومجزأة ومُقسمة بين جميع العلوم، وعدم القدرة أو العجز عن جمع هذه المعرفة معًا، يُبقي على جهل هائل حول هويتنا ذاتها. وهكذا، لا يُخبرنا أي برنامج تعليمي أن أجمل وأروع إنجازات العلم هو كشفه لنا أننا لسنا أبناء كوكب الأرض فحسب، بل أبناء الكون أيضًا، نحمل في داخلنا تاريخ

(1) أكرس الجزء الأكبر من أعمالي للبشر، من كتاب «الإنسان والموت» إلى «إنسانية البشرية»، المجلد الخامس من كتاب «المنهج»، بما في ذلك «النموذج المفقود: الطبيعة البشرية»، و«الأرض- الوطن». لذا، يتناول هذا الفصل البشر فقط من منظور أسئلة حول المجهول الذي أوصلتنا إليه معرفتنا.

الكون بأكمله من الجسيمات الأولى وتاريخ الحياة بأكمله من أول كائن أو كائنات خلوية. وكما هو الحال بالنسبة لتاريخ الكون وتاريخ الحياة، يشمل التاريخ البشري إبداعات: مجتمعات ودول وحضارات وأديان (البوذية والمسيحية والإسلام) ومعتقدات (الاشتراكية) وانقراضات (الإمبراطوريات والحضارات)، وفوق كل شيء، على غرار الحياة نفسها، طفرات وتحولات (من عشائر الصيد وجمع الثمار القديمة إلى المجتمعات التاريخية، ومن أوربا في العصور الوسطى إلى أوربا الحديثة، ومن العولمة الحالية إلى ما بعد الإنسانية المحتملة).

الإنسان، المعروف باسم الإنسان العاقل، هو نتاج تحول ثلاثي: الأثر الطفولي للفرد، مما يجعله يحتفظ بصفات طفولية، فسيولوچية ونفسية، كشخص بالغ؛ وتكوين الدماغ الكبير؛ تطور استخدام اليد من خلال تقابل الإبهام مع الأصابع الأخرى؛ والتكامل الفعال بين هذه التحولات الثلاثة[1].

نحن كائنات ثلاثية، في آن واحد، فرد، لحظة/ عنصر من نوع بيولوچي، لحظة/ عنصر من مجتمع، وهذه المفاهيم الثلاثة ليست فقط غير قابلة للفصل، بل إنها منتجة بشكل متكرر لبعضها البعض[2].

نحن «أنات» مطلقة ونسبية: كل منا هو كل شيء بالنسبة لنفسه، ولكنه

---

(1) لا يمكننا استبعاد فرضية الطموح والبحث في التطور البدائي الذي أدى إلى ظهور المشي على قدمين، والحركة اليدوية، والدماغ الكبير، عبر عملية استمرت أربعة ملايين عام، ظهرت فيها أنواع عديدة ثم اختفت منذ (توماي)، ولم ينجُ فيها وتطور إلا الإنسان العاقل/ المجنون. يمكننا الآن أن نعتقد أن تحدي السافانا، إن كان له دور في عملية التكاثر البشري، لم يكن المحفز الرئيس للإبداع البشري.

(2) La Méthode, 5, L'Humanité de l'humanité, op. cit., p. 21 - 74.

لا شيء بالنسبة للكل: المجتمع، النوع، الحياة، الكون. نوجد «في العالم فقط من خلال عدد لا نهائي من المصادفات» (باسكال) وكذلك من خلال عدد لا يُحصى من الحتميات. كل فرد فريد في بنيته الجسدية، وفسيولوچيا جسمه، وچيناته، وشخصيته. ذاتيته شخصية لا يمكن اختزالها. إنه مستقل، منفصل عن العالم الخارجي، محمي بجلده وجهازه المناعي، ومع ذلك، في الوقت نفسه، هو لحظة عابرة، جزء ضئيل من الجنس البشري، جزء ضئيل من المجتمع، كلاهما في داخله، الأول من خلال چيناته والآخر من خلال ثقافته. إنه مركز الذات، وعلى العكس من ذلك، يمكنه نسيان نفسه في «نحن» (الحب، العائلة، الحزب، الوطن)؛ إنه مسكون بالچينات التي تملكه، وآلية جسده لا واعية له تمامًا، إلا عندما يُنذره الألم بخلل. وبينما يكاد يكون في حالة مشي نائم، فهو شبه مستيقظ على مستوى وعيه.[1]

كل كائن حي يعرف الموت، ويدافع عن نفسه ضده، ويقاومه، وقد فعل ذلك منذ الكائنات وحيدة الخلية الأولى. لكن الفرد البشري يحمل في وعيه، منذ المراهقة وطوال حياته، حضور الموت المؤلم والمعذب لنفسه ولأحبائه، يسيطر الموت على عقله بهواجس هائلة، وقد دافع عن نفسه ضده أسطوريًا منذ عصور ما قبل التاريخ بالتخطيط لحياة أخرى، ثم بظهور ديانات الخلاص التي تمنحه الخلود.

يساعدنا الوعي على إدراك اللاوعي في داخلنا. إنه يسمح لنا بسؤال أنفسنا. هل نحن ألعوبة؟ أي لعبة، ولمَنْ؟ يذهب (كونديرا) إلى حدّ القول إن تجربة كونية تُجرى على الجنس البشري (الستار).

---

(1) حول الوعي، انظر الفصل السابع، «الدماغ والعقل».

في الواقع، كل شيء يحدث كما لو أن تجربة عملاقة تُجرى في داخلنا، غاياتها مجهولة لنا: علمية، سادية، لعبة، منافسة، معركة؟ أم أننا تجسيد لحلم كائن كوني؟

من الجهل إلى الوعي الكامل

نعيش على سطح أنفسنا، تسيطر علينا قوى الظلام، شياطيننا في داخلنا وخارجنا. نحن ممسوسون بالأساطير والآلهة والأفكار. نحن متلَاعِبون مُتلاعب بهم، نحن مسكونون بما نملك؛ الحياة أشبه بسكر وسير أثناء النوم. إن كائننا الحي بأكمله، المكون من مليارات الخلايا، وأعضاء معقدة لا تُحصى، وأنسجة شديدة التنوع، يمتلك ذكاءً، وربما فكرًا، نجهله تمامًا. تكمن في داخلنا معرفة عميقة ومعقدة؛ إنها تبني، وتُصلح، وتُجدد، وتُعيد إنتاج، وتُنعش كياننا البيولوچي، ونحن نجهل ذلك، تعمل آلية الجسم الجبارة خارج نطاق وعينا: يُغذي الدم جميع الخلايا؛ والكبد والطحال والقلب تعمل بشكل مستقل؛ إنه الآلة التي تُعطي التعليمات التي تصل إلى وعينا: الجوع والعطش والحاجة للتبول، إلخ.

لنُكرر كلمات هيراقليطس: «في اليقظة نكون نيامًا».

نحن آلات، لكنها آلات غير تافهة[1].

آلات غير تافهة: لأن ما هو غير متوقع، وغير منتظر، وجنون، وابتكار يمكن أن ينبثق منا.

(بوذا)، و(عيسى)، و(بولس الطرسوسي)، و(النبي محمد)، و(چان دارك)، و(بونابرت)، و(ماركس) آلات غير تافهة.

---

(1) الآلة التافهة هي آلة حتمية، سلوكها قابل للتنبؤ.

استئناس النار والبخار والكهرباء والذرة تم بواسطة آلات غير تافهة. أشعلت رصاصة أطلقها متعصب صربي على أرشيدوق النمسا في سراييفو عام 1914م حربًا عالمية خلّفت ملايين القتلى.

قد تُشعل صدفة عشقًا عارمًا.

كل ما هو محدد فينا مستقل في آنٍ واحد.

تعدد الشخصيات، الذي يتجلى لدى الأفراد المصابين بالاضطراب ثنائي القطب أو الهوس الاكتئابي، حاضر في أشكال ناشئة أو مؤقتة في حالات مختلفة ـ الغضب، الحب، المتعة ـ حيث نكون في كل مرة نفس الأنا وشخصًا آخر. تسبب تقلباتنا الداخلية تبلور شخصيات مختلفة لفترة من الزمن.

نعيش على سطح ذاكرتنا، غير مدركين أننا متصلون بأسلافنا، بأنواع الحيوانات، بالكوكب، بالنظام الشمسي، بالكون بأكمله، غير مدركين أن ذكاءنا السطحي مشكل بالذكاء العميق لهذه الوراثة والإرث.

لا يبدو أن هذه الذاكرة محفورة في چيناتنا فحسب. هناك ذاكرة أخرى (يكتشفها علم نفس الأجيال) تعيدنا في كثير من الأحيان إلى استعادة أحداث مرّ بها أسلافنا. نحن مسكونون، ممسوسون من قِبل آبائنا. أحيانًا، تكون طبيعة والدي المبهجة في داخلي، وأحيانًا تكون طبيعة أمي الكئيبة. بل والأكثر من ذلك: أسلاف لا حصر لهم بداخلنا. كأننا، في تجمع من أسلاف يحتمل وجودهم داخلنا، يأتي أحدهم، وأحيانًا الآخر، ليسكننا. نحن مسكونون بالأنواع الموجودة على شكل حمض نووي في مليارات خلايانا ـ في كامل كائننا الحي، في أعضائنا المعقدة التي لا تُحصى، في

أنسجتنا المتنوعة للغاية. كما أننا نجهل أن آلتنا ثديية، فقارية، وتحمل في طياتها تاريخ الحياة. تمتلك الآلة ذكاءً وحكمة (كتب عالم الأحياء (والتر كانون) كتاب «حكمة الجسد»)، ونوعًا من المنطق نجهله تمامًا: إن الولادة هي في الوقت نفسه نهاية مغامرة جنينية تبدأ من بويضة، وهي الخلية الأولية، ولكنها تحمل إرثًا هائلًا، وتبدأ من جديد في فترة متسارعة مدتها تسعة أشهر، بطريقة ثلاثية الأبعاد وفريدة من نوعها، وهي مليارا سنة من تاريخ الحياة. نهاية الحياة الرحمية هي بداية مغامرة جديدة مع الولادة والطفولة والنمو والشيخوخة والموت، شائعة ومتكررة، ولكنها أيضًا غير مسبوقة وغير معروفة في أشكالها الفريدة. ولماذا يُخفي ليس فقط فترة الجنين في ماء الأم، بل أيضًا الولادة، وهي صدمة عنيفة للغاية؟ لماذا فقد وعينا ذكرى حياتنا الأولى داخل الرحم والحدث الأبرز في حياتنا؟ نحن مسكونون ببرمجية مزدوجة لذاتنا: برمجية التأكيد الأناني للذات ـ الأنا التي تضعنا في مركز عالمنا، وبرمجية الـ«نحن» التي توحدنا وتستوعبنا داخل مجتمع. الأولى تستبعد أي آخر غير الذات، والثانية تضم الذات ضمن ذوات أخرى في الـ«نحن».

تفسر البرمجية المزدوجة (مركزية الأنا، الجماعية) الحقيقة المزدوجة: مركزية الذات والعزلة المطلقة لكل فرد، والإيثار وعدم العزلة عن المشاركة أو الجماعة، وتفسر كيف يمكن للبشر أن يكونوا صالحين أو سيئين في أعماقهم، تبعًا لتقلبات الأحداث.

تساعدنا على فهم الطموح الأساسي للبشرية، بلا شك منذ نشأتها وعلى مرِّ التاريخ: الطموح إلى نمو الذات داخل مجتمع داعم. كل التمردات الكبرى، وكل الثورات الناشئة، تنبع من هذا الطموح، وهو

الطموح الذي تعبر عنه أيديولوچيات التحرر؛ لكن هذه الأيديولوچيات، التي كانت يومًا ما سيدة السلطة، غالبًا ما كانت تخفي وراءها أفضل أدوات القمع. علينا أن نتذكر دائمًا أن البشرية، في فرديتها ومجتمعها وتاريخها، مستقطبة بين العقل والهذيان، بين التكنولوچيا والأسطورة، بين المصلحة الذاتية واللعبة النزيهة. هذه قوى داخلية متعارضة (Daimon قوة إلهية مرشدة)، وهي مصدر الأفضل والأسوأ في ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. تكمن الصعوبة في إضفاء الجدلية على العقل والعاطفة باستمرار لتجنب هذيانين، هذيان العقل الجامد وهذيان الجنون، لكي لا نسمح للتكنولوچيا بأن تسيطر علينا، بل أن نتحكم بها، وأن نتحاور مع أساطيرها من دون أن نخضع لها، وأن نربط بين الأنا والنحن.

ومع ذلك، غالبًا ما ساد الأسوأ. التاريخ مدفوع بقوى مجنونة، بينما، كالحياة، يحمل في طياته كتلًا من العقلانية. كثيرًا ما وجهت الأوهام والعمى مصائر الشعوب. أدت إرادة القوة إلى مجازر وكوارث. أبادت الشمولية كل مَنْ لم يمتثل لها، حتى أنها ارتكبت عملية إبادتها بنفسها.

يكشف التاريخ عن الإنسانية. يقول (كونديرا)، مُحقًا: «التاريخ هو بمثابة ضوء كشاف يدور حول الوجود الإنساني، ويلقي الضوء على إمكانياته غير المتوقعة التي [...] عندما يكون التاريخ ساكنًا، لا تتحقق، وتبقى خفية وغير معروفة».

كما هو الحال في الحياة، لا يتقدم التاريخ مباشرةً، بل يتحول بفعل انحراف، إذا ما تعزز وتطور، يصبح اتجاهًا سيحل محل التيار السائد. وهكذا، حول المنحرفون، أمثال (ساكياموني)، و(عيسى)، و(بولس)، و(محمد)، و(لوثر)، و(كوبرنيكوس)، و(كولومبوس)، و(فولتون)،

و(ماركس)، و(لينين)، و(هتلر)، اتجاه التاريخ. يولد الدين في ظروف تاريخية محددة، ولكن بمجرد ترسيخه واستقراره، يمكن أن ينتشر بشكل كاسح (غالبًا مفروض) في أي مكان ولأي شخص (مثل فرض المسيحية في أمريكا الجنوبية، وانتشار الإسلام في أفريقيا).

لا توجد حضارة تخلو من مسحة بربرية، ولأن البربرية جزء لا يتجزأ من الحضارة، لا يمكننا إلا مقاومتها، لا القضاء عليها. يكشف البشر إما عن أفضل ما فيهم وإما عن أسوأ ما فيهم في أوقات الأزمات والصراعات والكوارث.

إن إهدار الجراثيم والبذور والحيوانات المنوية أمر مفهوم في مواجهة قوى الموت والدمار والافتراس المتحالفة. ولكن، بالنسبة للبشرية، يا له من إهدار لقدرات بشرية كثيرة لم تُستغل، وكم من آمال لم تُحقق، وكم من حب مضلل، وكم من دوافع مُجهضة، وكم من الفرص الضائعة، وكم من موسيقيين صغار مثل (موزار) قُتلوا، وسوء فهم، وخلافات، وأحقاد حمقاء. جميعنا نعاني يأسًا ينبع من أعماق نفوسنا. نتأرجح بين إرادة الحياة والتذمر من العيش بالتناوب. نتأرجح بين الضغط والاكتئاب، وهي كلمة مُبتذلة، مُفرطة الاستخدام، لكنها عميقة.

لقد أدى جهلنا بالتعقيد الأنثروبولوچي إلى أخطاء وعمى وأوهام، وسيستمر ذلك ما لم يحدث إصلاح جذري للمعرفة والوعي والفكر الإنساني.

يجب أن يكون الوعي مستقبل البشرية.

الفصل السابع

الدماغ والعقل

على الرغم من الومضات وبصيص الأضواء التي تكشف عنها أجهزة يخترق مدى رؤيتها الجمجمة، يبقى الدماغ أقل فهمًا من الكون، وأقل فهمًا من الكائنات الحية. هذا المجهول ليس خفيًا علينا فحسب، بل على معرفتنا، وكلامنا، وذكائنا. ما اكتشفناه عن الدماغ بالغ الأهمية، وفي الوقت نفسه يعزز غموضه. إنه آلة تعمل بمئة مليار خلية عصبية (10أس إلى 11) مترابطة ومتشابكة في مئة ألف مليار وصلة مشبكية، يمكن وصفها كهربائيًا وكيميائيًا، مُحاطة بأحواض من الخلايا الدبقية. إنه كون يبدو أنه يحتوي على عناصر وعلاقات أكثر من الكون الأكبر الذي يمثل جزءًا ضئيلًا منه. إنه فريد بين الكائنات الحية في حجمه وتعقيده.

الدماغ والعقل، اللذان يتداخلان، لكل منهما لغة لا يفهمها الآخر؛ لغة الدماغ كهروكيميائية، ولغة العقل لغة الكلمات والجمل.

تبدو علاقة الدماغ بالعقل مبهمة للوهلة الأولى، يشوه هذه العلاقة نوعان من التفسيرات السائدة والمتعارضة؛ الأول اختزالي: ينكر واقع

العقل، فيذوبه في الدماغ، والثاني قائم على الفصل بينهما: العقل هو واقع قائم بذاته، يستخدم الدماغ كهوائي تلفزيوني.

يجب تصور علاقة العقل بالدماغ، ليس باختزال العقل في الدماغ أو فصلهما، بل وفقًا لمبدأ الانبثاق. الدماغ، إن لم يكن مقره، فهو على الأقل مصدره، ينبثق العقل من أنشطة الدماغ، ويصبح واقعًا نفسيًا باستيعاب لغة المجتمع ومعارفه وثقافته. يتجلى ويصف نفسه من خلال الكلمات والمفاهيم والخطابات والنظريات. بعد أن أصبح عقلًا من خلال النشاط الفكري، فإنه يتضمن عنصرًا حساسًا يُسمى النفس، لا يعيش العقل إلا بالنشاط؛ أما النفس فلا وجود لها إلا بالحساسية. الروح والنفس يين ويانغ[1]، لا ينفصلان، متكاملان، وحاضران في بعضهما البعض. وهما، بلا شك، يعتمدان على نشاط دماغي دائم.

الوعي هو انبثاق أنشطة العقل، ذات الطبيعة التأملية، على الذات وعلى أي موضوع معرفي. الوعي معرفة من الدرجة الثانية، تعرف نفسها بمعرفة ما تعرفه. هو ذاتي بطبيعته؛ لأنه يحمل في طياته شعورًا بالحضور الشخصي للذات الواعية، ولكنه يسمح لها بمعرفة نفسها والتفكير فيها كموضوع للمعرف، أي بإضفاء طابع موضوعي على نفسها من دون أن تفقد طابعها الذاتي. إنه يسمح بالتأمل في أي موضوع معرفي، وبالتالي يُمكّن ويعزز أي بحث ليس فقط عن الموضوعية، بل أيضًا، وقبل كل شيء، عن الحقيقة. الوعي هو الثمرة النهائية للعقل البشري، وتطوره النهائي، وسمته العُليا.

---

(1) هما مبدأ أساسي في الثقافة والفلسفة الصينية، ويرمز إلى ثنائية الأضداد التي تكمل وتجذب بعضها البعض، يعتبر الرمز المعروف، دائرة مقسمة إلى أقسام سوداء وبيضاء، كل منها يحتوي على نقطة من اللون المعاكس، رمزًا لذلك.

لكن كأي منتج نهائي، فهو الأثمن والأكثر هشاشة في آن واحد، عرضة للتذبذب والذبول، ومثل المعرفة التي يمثلها شكلها المكتمل، فهو عرضة لخطر الخطأ، وأسوأها على الإطلاق: خطر الوعي الزائف الذي يعتقد أنه وعي حقيقي.

العقل الواعي هو انبثاق يصبح واقعًا. ونتيجة لذلك، يمكن أن يكون له تأثير رجعي على الدماغ، وعلى الجسد بشكل أعم. للعقل قوى متحكمة بالدماغ، يعتمد عليها، مما يدفعه لإفراز هرمونات العدوان والدفاع والتعاطف، ويمكنه تطوير قوى متحكمة بالجسم نفسه، كما يتضح من قدرة ممارسي اليوغا على إبطاء ضربات قلوبهم أو حتى إيقافها. يبدو لي أن قوى العقل الكامنة فينا لا تزال مجهولة إلى حدٍّ كبير. ربما يمتلك قدرات معرفية لم تستيقظ بعد، وقوى كامنة سنكتشفها عنها ونستخدمها يومًا ما؟

مبدأ الانبثاق لا يُفسر، بل يُلاحظ فقط. إنه لا يزيل الغموض، ولكنه يُمكّننا من فهم كل من الواقع النشط للعقل، واستقلاليته النسبية، واعتماد هذه الاستقلالية على الدماغ، وكذلك واقع الوعي، واعتماده على العقل.

لا يمكننا إدراك سرّ العقل إلا من خلال الاستخدام الكامل للعقل الواعي. وقد استكشف العقل بطرق مختلفة من قِبَل علماء النفس والمحللين النفسيين، كما لو كان منفصلًا عن الدماغ. وقد استكشف الدماغ مُؤخرًا من قِبَل علماء الأعصاب باستبعاد مفهوم العقل. اكتشف (بول ماكلين) أن الدماغ البشري يحتوي على مناطق متتالية (دماغ الزواحف، ودماغ الثدييات، وأخيرًا الدماغ البشري البحت)، لكنه ارتكب خطأً بجعل هذه الحالات الثلاث مستقلة في حين أنها مترابطة باستمرار كما أشار

(چان ديدييه فانسن)؛ ثم اكتشف علم الأعصاب ازدواجية الدماغ الأيسر، الذي يُسمى خطأً ذكوريًا، والذي يفكر بشكل تسلسلي وتحليلي، والدماغ الأيمن، الذي يُسمى أنثويًا، والذي يفكر في الأمور بشكل شامل وحساس. في الواقع، يظهر القليل من الحوار تكامل الدماغين، وأن هيمنة أحد الدماغين على الآخر تعتمد على الثقافات أو الشخصيات أو اللحظات.

طور (كارل بريبرام)، الذي لا يزال علماء الأعصاب يهملون عمله، نموذجًا مجسمًا ثلاثي الأبعاد «هولوغرافيًا» لكيفية عمل الدماغ. في الصورة ثلاثية الأبعاد، يمكن جمع جميع المعلومات المسجلة على كل جزء من وسيط فوتوغرافي، على سبيل المثال في شكل أنماط متداخلة، من إعادة بناء الصورة بالكامل من الجزء، وبالتالي تقديم رؤية شاملة ثلاثية الأبعاد. وهكذا، لا يكون الجزء موجودًا في الكل فحسب، بل يكون الكل حاضرًا في الجزء. بالقياس، يعتقد (بريبرام) أن الذاكرة لا تُخزن في خلايا في مواقع محددة من الدماغ، بل هي محتواة في أنماط تداخل الموجات التي تمر عبر الدماغ. كحجر يرمى في بركة فيُنشئ دوائر متحدة المركز. الذاكرة أشبه بإعادة بناء رمية الحجر انطلاقًا من إعادة بناء الدوائر المتحدة المركز ولكن بشكل معكوس.

وأخيرًا، تمكن علم الأعصاب من فحص نشاط الدماغ داخل الجسم الحي من خلال الجمجمة. أظهر (أنطونيو داماسيو) و(چان ديدييه فانسن) أن العواطف حاضرة دائمًا في الأنشطة العقلانية واتخاذ القرارات. تستمر استكشافات نشاط الدماغ وتكشف عن شظايا من تعقيده المفرط، لكن هذا التعقيد المفرط سيبقى مجهولًا إلى حدٍّ كبير لعقولنا/ أدمغتنا نظرًا لمبدأ أن الجهاز يفتقر وسائل معرفة نفسه معرفة كاملة.

وعلاوة على ذلك، من الضروري لنا أن نفهم أن عمليات معرفتنا، من الإدراك إلى الأفكار والنظريات، بما في ذلك اللغة، هي في حدّ ذاتها مصادر وظروف للخطأ والوهم. إن ما يعرّفنا هو ما يخدعنا ويضللنا. كل معرفة، بدءًا من الإدراك البصري أو السمعي، هي ترجمة لمحفزات ضوئية أو صوتية إلى شيفرة ثنائية تدور في العصب البصري أو السمعي، وتُعاد صياغتها في الدماغ. وبالتالي، فإن كل معرفة معرضة لخطر الخطأ والوهم الدائم. فنحن دائمًا محكومون بالتفسير. علاوة على ذلك، فإن كل موضوع معرفي يُبنى بالمشاركة مع عقل الذات العارفة، ويتشكل من خلال إدراك واقع يتضمن عنصرًا من المجهول. كما أن كل معرفة تنطوي على خلفية من الجهل. وكما يقول (داني روبرت دوفور): «الوضوح واليقين متوافقان مع الخطأ والكذب[1]».

بتجاهل كل تعليم للمعرفة، يسهم نظامنا التعليمي بأكمله في التهديد الدائم، والمميت في كثير من الأحيان، والمتزايد الآن، في الخطأ والوهم حول مصير الإنسان.

وهكذا، فإن آلة المعرفة هي أيضًا آلة مجهولة إلى حدٍّ كبير، لا تستخلص سوى شظايا من المجهول، ولكنها أيضًا آلة للخطأ والوهم. ومهما كانت رائعة التنظيم، فإنها غير مؤكدة في عالم غير مؤكد وواقع إشكالي[2]. بالتأكيد، يمكننا، وبصعوبة بالغة أحيانًا، الوصول إلى يقينيات، لكن هذا يعتمد على الوقائع والأحداث، بعد مقارنات عديدة لمصادر المعلومات وعمليات تحقق عديدة. ومع ذلك، لا يمكننا الفرار من التفسير. النظريات

---

(1) Le Bégaiement des maîtres, éditions François Bourin, 1987, p. 22.

(2) انظر الفصل الثاني، الواقع.

العلمية، كما أوضح (بوبر) علمية؛ لأنها قابلة للنقد والمراجعة. في الواقع، النظريات العلمية الوحيدة المتبقية من القرن التاسع عشر هي نظريات التطور والديناميكا الحرارية، والتي تطورت هي الأخرى منذ ذلك الحين. حتى النظريات العلمية مبنية على مسلمات غير قابلة للإثبات، ومبادئ التفسير غير قابلة للتفسير. الاستقراء والاستنتاج، وهما أداتا العقلانية، لكل منهما عيوبه؛ الأول تجريبي (بوبر)، والثاني منطقي (غودل وتارسكي). أما أنظمتنا المعرفية العُليا، التي تحيط بمعرفتنا بمعرفة من الدرجة الثانية، فلها عيوبها الخاصة.

الدماغ آلة فائقة التعقيد، غير تافهة. الآلة التافهة هي آلة يكون مخرجها معروفًا عندما يكون مدخلها معروفًا، بمعنى آخر، إنها آلة محددة تمامًا، مثل الآلات الاصطناعية التي بنيناها، وصولًا إلى الروبوتات الحديثة التي أدخلنا فيها عدم اليقين. إن عدم تفاهة العقل/ الدماغ البشري لا تقتصر على عدم اليقين المرتبط بكل تعقيد، وخاصة بكل تعقيد مفرط، بل تشمل أيضًا احتمالية عدم توقع قراراته وأفعاله وسلوكياته، وما هو أقل قابلية للتنبؤ مسبقًا: أزمة الجنون، مثل أزمة (نيتشه) في تورينو في 3 يناير 1889، وخاصةً أي فعل إبداعي، مثل السيمفونية التاسعة لـ(بيتهوفن).

نصل إلى ثلاثة ألغاز:

- لغز اللاوعي السحيق، ليس فرويديًا فحسب، بل لغز الرغبات والمخاوف والكبت، بل لغز دماغنا الذي يعمل بلا وعي بمليارات الخلايا العصبية، لغز عقلنا الذي يعمل بلا وعي، وأحيانًا يعمل فقط بشعلة وعي صغيرة وهشة على السطح.

- لغز كائننا الحي، آلة هائلة منظمة ذاتيًا تعمل بلا وعي إلا عندما ينبهها اضطراب أو ألم.سرّ هويتنا، الذي يحمل في ذاكرته حياتنا الجنينية وأسلافنا.

هذا الثالوث الذي لا ينفصل، والمكون من لاوعينا، وكائننا الحي، والذاكرة المتضمنة في هويتنا، يعني أن في داخلنا معرفة هائلة بكل ما ننتمي إليه: الكون، والحياة، وأسلافنا، وهي معرفة نجهلها تمامًا. ومن أعظم جهلنا الذي لا سبيل إلى إصلاحه، كما ذكرنا، عدم معرفة ما نعرفه.

المعرفة القياسية

لا يعمل العقل منطقيًا فحسب، بل قياسيًا أيضًا، ويمكنه العمل حواريًا (بافتراض التناقضات وربطها[1]).

من اللافت للنظر أن آلة المعرفة تستخدم المنطق والقياس معًا. القياس، الذي غالبًا ما يُستخدم كاستعارة، هو وسيلة معرفية محددة لا يزال العلماء يحتقرونها حتى اليوم، على الرغم من ردّ الاعتبار له علميًا منذ عام 1950م من قِبل علم التحكم الآلي لـ(نوربرت وينر)، الذي أظهر عمليات تنظيمية مماثلة في الآلات الطبيعية، والآلات البشرية، بما في ذلك المجتمعات، والآلات الاصطناعية.

يوجد القياس في جميع أساليب معرفتنا باستثناء الحساب، وهو، حسب الظروف أو الشخصيات، يخضع لسيطرة وتصحيح منطق العقلانية. علاوة على ذلك، هناك استخدام مهم للقياس في عمليات معرفتنا لا يتعارض بأي

(1) Cf. La Méthode, 3, La Connaissance de la connaissance, op. cit., p. 139 - 142.

حال من الأحوال مع العقلانية، ويظل القياس أساسيًا في حياتنا اليومية، في شكل استعارة أو صورة للتعبير عن شعور أو فكرة. القياس عنصر أساسي في الشعر. الشعر أسلوب معرفي قياسي ـ سحري يخلق «جاذبية ساحرة» (كارمن).

يقوم التفكير السحري، مصدر كل الأساطير، على القياس بين العالم الصغير (الإنسان) والعالم الكبير (الكون، الطبيعة). في هذا السياق، ثمة صلة تناظرية بين الاسم والشيء، والشيء وصورته. وهكذا، يستخدم المعالجون في علاج الأمراض شيئًا يخص المريض، أو اليوم باستخدام صورة المريض، أو حتى صوته المرسل عبر الهاتف.

هذا الشكل من المعرفة، الذي غالبًا ما يؤدي إلى الخرافات والأوهام، يحمل في طياته هذه الحقيقة التي تجاهلها العلم طويلًا حتى أدركتها التطورات الحديثة في علم الكونيات الفيزيائي وعلم الأحياء: كما هو الحال في الهولوغرام، يُنقش الكل في الجزء، فكذلك، كما ذكرنا سابقًا، يحمل الإنسان في طياته مغامرة الكون ومغامرة الحياة. بهذا المعنى، يكون الإنسان عالمًا مصغرًا، على صورة الكون. دعونا نضيف أنه في العلاقة التناظرية بين الإنسان والطبيعة، ثمة حقيقةٌ مُعبَّر عنها بطريقة أسطورية، تربط بين المصطلحين اللذين فصلتهما الحضارة الغربية حتى ظهور الوعي البيئي الحديث.

السحر مفهوم تتمتع فيه الحيوانات والنباتات بصفات إنسانية، والظواهر الطبيعية، تحكمها أرواح قادرة على كل شيء. يُسلِّم السحر بقدرة الروح المطلقة. الروح قادرة على الشفاء (من خلال الشامانية، والمغناطيسية، ووضع الأيدي) وطرد الشر؛ كما يمكنها أن تلقي تعويذة لعينة، مثل العين الشريرة.

أصبح السحر من الماضي البعيد أو من بقايا الخرافات. صحيح أن السحر ينبع من عقلية عتيقة، لكن إرثه حاضر فينا بشكل كلي وعميق[1]، لا سيما في أساطيرنا وأديانا. لقد نسيت عقلية (ليڤي ـ برول) «البدائية»، الطفولية، السحرية، الصوفية، أن الصيادين وجامعي الثمار القدامى استخدموا العقلانية لتطوير واستخدام أدواتهم، كالفخار، والأطباق، والحلي، وإشعال النار، وبناء منازلهم، وممارسة استراتيچيات. كما نسي (ليڤي ـ برول) أن الناس المعاصرين عقلانيون جزئيًا فقط، وغالبًا ما يكونون طفوليين، ومهووسين بالأساطير، وحمقى.

القدرات الإبداعية للعقل

في إبداع الكائنات الحية، يكون الدور الأساسي للجهاز التناسلي، الذي يحتوي على التهجين/ الذاكرة/ الچينات، ويُعدّلها في عملية تحويل إبداعي.

في الإبداع البشري، يكون الدور الأساسي للعقل/ الدماغ؛ فقد امتلك القدرة على الابتكار/ الإبداع منذ عصور ما قبل التاريخ، ليس فقط في الفنون والتقنيات، بل أيضًا في الانتشار الواسع للأساطير والخرافات.

الإبداع البشري في حالة استمرارية/ انقطاع مع الإبداع الحي. هناك استمرارية في تكاثره الغزير. هناك انقطاع بمعنى أن الإبداع البشري ذو أصل نفسي دماغي؛ حيث تجلى في الحضارات والتقنيات واللغات والثقافات والطقوس والأديان والتبادلات والمباني والآثار والأعمال

(1) Cf. L'Homme et la Mort, op. cit.

الفنية... هناك استمرارية/ انقطاع في الزينة والزخارف والألوان من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان، مع الوشم والرسوم على الوجه والجسم، ثم الملابس، الغنية دائمًا بالأشكال والألوان في الحضارات الإنسانية.

دعونا نلاحظ استمرارية جميلة داخل الانقطاع. يبدو لنا أن اكتساب الأجنحة، كما رأينا، هو ثمرة طموح للطيران ظهر في أنواع برية مثل هذه الزواحف التي أصبحت طيورًا وحشرات وثدييات (الخفافيش). وقد شعر البشر بنفس الطموح. عبّروا عنه بتصوير الملائكة، كائنات طائرة بوجوه بشرية، أو بمحاولة الطيران، مثل إيكاروس بأجنحة من الريش والشمع. صنع (ليوناردو دافنشي) نموذجًا لرجل طائر. حتى بعد اختراع الطائرة، ألقى (كليم سون) نفسه بأجنحة اصطناعية من أعلى برج إيفل ولقي حتفه. لكن (كليمان آدير) كان قد نجح بالفعل في صنع آلة مجنحة، مزودة بمحرك ومروحة (غير قادرة على تحريك الأجنحة)، وتمكن من رفع نفسه قليلًا عن الأرض. ثم تطور الطيران، وأصبحنا كائنات طائرة، ولكن داخل طائرة.

يغلي العقل/ الدماغ ليلًا ونهارًا. وكما قال (ميترلينك): «في أنفسنا بحر داخلي، بحر مظلم مخيف وحقيقي؛ حيث تعصف عواصف غريبة من الغضب غير المعبر عنه، والذي لا يمكن الإفصاح عنه». الحلم أشبه بمكب نفايات مليء بالأشياء الثمينة الممزوجة بالنفايات: فيه ذاكرة، وخيال، ورمزية، وأحيانًا، ربما، حدس، وأحيانًا عمل فكري[1]... إن القدرة الإبداعية للأحلام خارقة للعادة: أحلامنا تعيد إنتاج شخصيات

(1) من الخطأ أن نبحث عن مفتاح للأحلام، بل ينبغي أن نبحث عن مجموعة من المفاتيح.

حية، حقيقية كما في حياة اليقظة، وأحداث مذهلة، معقولة وخيالية. وفي كل ليلة، ينبثق من عقولنا إكثار إبداعي رائع.

لو استطعنا أن نجد أنفسنا داخل عقل/ دماغ إنسان ينجز عمله بشكل روتيني، لاكتشفنا أحلامًا نهارية، وتخيلات، وهواجس، وحوارات، ومآثر، وجرائم قتل خيالية، وتخيلات جنسية.

لسنا أسياد عقولنا. يظهر لنا الاهتداء كيف يمكن أن تتحول العقول بإشراقة مفاجئة. هذه هي حالة (شاول) مضطهد تلاميذ يسوع، الذي انهار على طريق دمشق عندما ظهر له يسوع وسأله: «شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟» و(شاول)، الذي أصبح (بولس)، تحول إلى مؤسس المسيحية. هناك كانت هناك العديد من التحولات المنيرة الأخرى، مثل تحول (أوغسطين)، وفي القرن العشرين، تحول (بول كلوديل). يبدو الأمر كما لو أن هذا الإيمان، في عقل متشكك، بل ومعادٍ لعقيدة دينية (بما في ذلك دين الخلاص الأرضي، كما كانت الشيوعية)، ينخر لا شعوريًا في البنية العقلانية للمتشكك من الداخل، وفجأة، تحت صدمة منيرة، يدمرها ويحل محلها. في حين أن الحاجة إلى اليقين والإيمان تلهم وتؤدي إلى هذا التحول، فإن تحقيق التراجع عن هذا التبدل يتطلب عملًا نقديًا شاقًا.

لا شيء يُسلم به في عالم العقل. (رومان رولان) المثقف الوحيد بين عامي 1914م و1918م الذي أدان الحرب بين الإخوة بوضوح في كتابه «فوق المعركة»، انغمس في العمى الستاليني من عام 1930م حتى محاكمات موسكو. أنا نفسي، الذي اكتسبت في الثامنة عشرة من عمري ثقافة سياسية جعلتني معاديًا بشدة للشيوعية الستالينية، اعتنقتها في عام

1942، بعد مقاومة موسكو للفيرماخت[1]، قدمت لنفسي حججًا اعتقدتُ عقلانيًا أنها حاسمة[2].

من القديس (أوغسطين) إلى (أراغون)، إلى (إيلوار)، و(چان توسان ديسانتي)، و(چوليو كوري)، كم من عقول متشككة واعية وعقلانية وعلمية اعتنقت إيمانًا عبثيًا! علاوة على ذلك، من باب الوعي بعجز العقل، فُرضت عقيدة «العبث» على (بولس)، و(أوغسطين)، و(باسكال)، وكثيرين غيرهم. الأمر المذهل هو أنه منذ نشأة الإنسان عاقل/ مجنون، أنتج العقل/ الدماغ خيالات تتخذ، كالأكتوبلازم المتجسد، شكلًا وجسمًا وجوهرًا للأساطير والأشباح والأرواح والآلهة.

العقل البشري هو عقل أسطوري شعري، بل وأكثر من ذلك، ينتج آلهة تتولى، في مجتمع ولصالحه، سلطة ونفوذًا لدرجة استعمار العقول التي لولاها لما وُجدت.

يتمتع البشر بنزعة هستيرية، أي القدرة على إضفاء واقع مادي على واقع نفسي، وينطبق هذا على الأعراض الجسدية؛ حيث يسبب اضطرابٌ عقليٌ أو أخلاقي ألمًا في عرق النسا أو ورمًا في أجسادنا. أزعم أن هذه النزعة الهستيرية أوسع نطاقًا بكثير، وتتجلى في القدرة على إضفاء الواقع، بل وحتى ما فوق الواقع (السريالية)، على إبداعات خيالية. ينطبق هذا أيضًا على الأرواح العديدة الموجودة في المجتمعات القديمة (وقد عادت هذه الأرواح في القرن التاسع عشر

(1) في كتاب «النقد الذاتي»، ذكرتُ الحجج التي دفعتني إلى اعتناق الستالينية، والتي دفعتني إلى إخفاء معرفتي الصحيحة بالستالينية لمدة خمس سنوات.

(2) اقتبستها من كتاب «النقد الذاتي»، ص 79 وما يليها.

في بيوت مسكونة وجلسات تحضير أرواح). كانت الأرواح شبه آلهة في أوريكاس الكاندومبلي أو الفودو، وتتجسد في شخص المؤمنين خلال طقوس المس. ربما يكمن أصل الأرواح في «القرين» الذي، في المعتقد القديم، لا يزال كامنًا فينا، يتجلى من خلال الظل والانعكاس وصورة الذات، وينشط في الأحلام؛ يبقى القرين كشبح غير مادي بعد الموت، ويمكن أن يصبح روح السلف، كما في عبادة العائلة في روما القديمة، ولا يزال قائمًا حتى اليوم في الصين واليابان[1]. قد يتساءل المرء إن لم يكن هذا القرين قد أصبح الروح الشريرة (Daimon) لدى الإغريق، وهو نوع من المستشارين النافعين داخليًا وخارجيًا للشخص، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه ربما أصبح أيضًا الملاك الحارس الحامي في العصور المسيحية. جميع الأرواح التي تُولد من عقولنا تتغذى على عقولنا وتغذيها بحمايتها أو بالخلاص الذي تعدنا به.

تجلت القدرة الإبداعية الأسطورية للعقل البشري في كل حضارة، لا سيما من خلال خلق الآلهة: تُظهر لنا الإلياذة تدخل آلهة الأولمب في شؤون البشر، وخاصة الحروب. فرضت آلهة مرعبة ذات مطالب دموية، مثل آلهة بلاد ما بين النهرين أو الأزتك، تضحيات بشرية. أما إله الكتاب المقدس، فقد طالب بمذبحة الكنعانيين ـ بمَنْ فيهم النساء والأطفال والحيوانات والأشجار المثمرة. يطالب إله التوحيد بعبادة دائمة، وتسبيح متواصل، وطاعة لأقسى أوامره. نحن قادرون على الموت أو القتل من أجل إله لا وجود له بدوننا. نحن معتمدون عليه كليًّا، مع أن وجوده يعتمد علينا وحدنا. الآلهة خالدة ما دام لديها مؤمنون، لكنها فانية بزوال هؤلاء

(1) Cf. L'Homme et la Mort.

المؤمنين. ثم، في عقول المجتمعات الحديثة العلمانية، أصبحت الأفكار ـ القومية والشيوعية والفاشية ـ ذات سلطان مطلق، تطالب أتباعها بالطاعة تمامًا مثل الجثة (perinde ac cadaver). الأيديولوچيات التي تدّعي أنها علمية، كالماركسية، واليوم الليبرالية الاقتصادية، تسيطر سيطرة مطلقة على العقول التي تؤمن بها. حتى داخل العقول العلمية، سيطرت أفكار وهمية بشكل قاطع، مثل أفكار الحتمية الكونية أو الاختزالية. وبينما يصبح الخيال حقيقيًا في الآلهة، توجد قوى إبداعية أخرى للواقع الخيالي، ولكن مع وعي تام بطبيعتها الخيالية. هذه هي قدرة الروائيين، وخاصة أعظمهم: (بلزاك)، ود (يكنز)، و (زولا)، و (بروست)، و (موزيل)، وغيرهم، على إعادة خلق عوالم وشخصيات ومواقف وأحداث إنسانية واجتماعية ذات ثراء وتنوع وتعقيد لا حدود له. حالات متطرفة، بالتأكيد، لكنها هي التي ستنير لنا هذه القوى الكامنة في العقل البشري التي غالبًا ما نغفل عنها. يتعاون الخيال مع الواقع في الرواية؛ حيث يُولد عالم وهمي مُفعم بتأثير الواقع؛ وينطبق الأمر نفسه على مختلف الفنون.

الشامانية

للتعرّف على أعظم وأغرب قدرات العقل البشري، لا بدّ من الإشارة إلى الشامانية، التي لطالما استخف بها أو اعتبرت فضولًا إثنوغرافيًا. الشامانية عالمية في المجتمعات القديمة في سيبيريا وأمريكا وآسيا. ويبدو أن الكاهن الغالي (نسبة إلى الغال) كان شامانيًا. ويستمر الشامان في المجتمعات التقليدية في صورة منحطة كساحر أو معالج. ويُبعث اليوم في مدن بيرو وكولومبيا والبرازيل. لطالما اعتبر المحدثون الشامانية نسيجًا من

المعتقدات والخرافات غير العقلانية، إلى أن أثبت المجربون من أصول غربية[1] فعاليتها العلاجية والتنبؤية. الشامان هو في آن واحد «حكيم، وخبير بالمداواة، ومستشار، ومعالج، وعرَّاف». وهو المطلع على مستودع الثقافة والمعتقدات والممارسات التي تمكنه من التواصل مع الأرواح (أرواح الأسلاف، والأرواح الحيوانية) ضمن مفهوم العالم السحري ـ القياسي؛ حيث يتواصل كل شيء. يطور ويقود طقوس الاحتفالات التي يتفاعل فيها مع العالم غير المرئي، ويشفي إما من خلال العمل النفسي المباشر وإما باستخدام النباتات والمواد العلاجية؛ يتمتع بالإدراك فوق الحسي: التخاطر، والاستبصار، والرؤية من مسافات بعيدة، والعرَّافة؛ يربط عالم الموتى بعالم الأحياء.

يُحفّز نشاط العقل/ الدماغ الشاماني بمشروب مثل الأياهواسكا في الأمازون أو نبات ألبيوتي، وهو فطر مهلوس في المكسيك، وبقرع الطبول الرتيب، والترانيم المتكررة، ويتجلى هذا النشاط في حالة الغِشية ومن خلالها. في حالة الغِشية، يتواصل الشامان مع عالم الأرواح (الأسلاف، الأرواح المتسلطة على المكان)، وكذلك مع عالم الحياة، سواءً أكان نباتًا أم حيوانًا (وفقًا لـ(چيريمي ناربي)، يتم التواصل عبر الحمض النووي الكوني، وهو لغة وراثية مطابقة لجميع الكائنات الحية[2]).

---

(1) Gala Naoumova: Taïga transes. Voyage initiatique au pays des chamans sibériens, Calmann-Lévy, 2002. Corinne Sombrun, Les Esprits de la steppe, Albin Michel, 2012. Cf. le premier livre d'ensemble, Mircea Eliade, Le Chamanisme et les techniques archaïques de l'extase, Payot, 1992.

(2) Le Serpent cosmique: l'ADN et les origines du savoir [«The Cosmic Serpent: DNA and the Origins of Knowledge»], Georg Éditeur, 1997.

يستطيع الشامان الوصول عن بُعد إلى المعرفة الكامنة في النباتات والحيوانات. حتى أننا نعتقد أنه كان مرشدًا ومعلمًا للبشرية في عصور ما قبل التاريخ والمتقادمة.

يبدو أن الشامان لعب دورًا حيويًا في تغذية شعبه، كما نعتقد في الأمازون وبين هنود بويبلو في المكسيك. إن التنوع الهائل والوافر لنباتات الأمازون يجعل من المستحيل على السكان الأصليين العثور عشوائيًا على النباتات الصالحة للأكل أو الطبية التي يحتاجونها بشدة. لا بدّ أن المعرفة الشامانية كانت تختار لهم النباتات الصالحة للأكل، وتشير إلى السام منها. كانت مجتمعات بويبلو تطبخ ذرة، تعتمد عليها حصريًا، كلًا بطريقة مختلفة، باستخدام مستحضرات غريبة مصنوعة من لحاء الشجر أو مكونات أخرى. اعتبر علماء الأنثروبولوچيا هذه الممارسات خرافية إلى أن اكتشف عالم الأنثروبولوچيا الحيوية[1]، عند تحليله للمواد المضافة إلى الذرة أثناء الطهي، أن هذه المواد المضافة تسمح للجسم البشري بامتصاص اللايسين، وهو عنصر غذائي موجود في الذرة.

لذا، تتضمن الشامانية إدراكًا عن بُعد، أو تخاطرًا، يتجلى في حالات الغَشْيَة، ليشكل حالات استبصار. يجب أن نفترض وجود عمليات معرفية تندرج تحت نوع من الحدس، إما محاكاة ـ قياسية (المحاكاة نشاط عقلي يتضمن المعرفة ويثيرها[2]) وإما الروحانية.

يشعر بعض الأفراد بـ«الموهبة» الشامانية في أنفسهم في سن مبكرة

(1) S. H. Katz, cf. L'Unité de l'homme.

(2) Cf. pages suivantes.

جدًّا. بينما يتلقى آخرون، أبناء أو بنات الشامان، تعليمهم من والديهم ليصبحوا شامانيين. هذا يعني، في رأينا، أن إمكانات المواهب الروحية الشامانية موجودة في كل إنسان، وأنها تحتاج فقط إلى تنمية، لكنها لا تتجلى تلقائيًا إلا في أرواح معينة.

علاوة على ذلك، يبدو لي على الأرجح أن الفنانين الذين رسموا لوحات كهوف ما قبل التاريخ في كهوف شوفيه ولاسكو وغيرهما كانوا شامانيين قادرين على إعادة إنتاج حيوانات لم يتمكنوا من رؤيتها مباشرة في أعماق الكهوف، من خلال المحاكاة، وبواقعية مذهلة. أنجزوا أعمالهم من الذاكرة، بلا شك في حالة من الغَشْيَة المخففة تلك التي تميز كل فنان مبدع. أنا شخصيًا، من دون رغبة في التظاهر بأنني فنان، قمت بصنع صور كاريكاتورية واقعية للغاية من رأسي، من دون حضورهم، لأحبائي، ولكن بمجرد أن أردت الرسم بشكل تحليلي أثناء النظر إلى نموذجي، ورسم الجبين والعينين والشفتين على التوالي، فقدت التشابه.

المحاكاة

هناك محاكاة تُعَدّ استحواذًا حقيقيًا: كنتُ أُحب محاكاة مُعلِّمي وصديقي ج. ف. لدرجةِ أن هذه الرغبة في محاكاته كانت تسيطر عليَّ في كثير من الأحيان. لكنَّ ما استحوذ عليَّ أكثر هو شخصه: بمحاكاة صوته، كنت أفكر مثله، كنت هو، بينما بالكاد بقيت على طبيعتي.

محاكاة الأحلام: لقد دهشت ذات صباح حين رأيت في حلمي حضور ج. م. الكامل، بأسلوب تفكيره، وكلامه، وصوته.

المحاكاة نشاط عقلي أساسي، سلَّط (رينيه چيرار) الضوء عليه، وربما بالغ

فيه في سياق التنافس. للمحاكاة مصادر ما قبل بشرية: فالمحاكاة الحيوانية لا تُحصى، ولها أنواع وألوان وأشكال مختلفة في الحشرات، وكذلك الزواحف والطيور والثدييات. إن القدرة البشرية عقلية في المقام الأول: إنها في عقل الفنان الشاماني الذي ينتج لوحات كهفية للحيواناتِ من دون وجود نماذج أمامه، وتكمن في الممثلِ الذي يجسد دوره، وتكمن في مشاهد الفيلم الذي يشعر بمشاعر الشخصيات. أخيرًا، من المهم جدًّا فهم أن المحاكاة نوع من المعرفة القياسية، وأن هذه المعرفة المحاكية تسمح بإعادة إبداع ما يحاكى في مجال جديد. كما أن المحاكاة أسلوب معرفي يمكنه الإبداع.

أشار (ڤيكتور سيرچ) إلى أنه كتب رواياته في حالة أشبه بالغَشْيَة. حالة ثانية، غَشْيَة خافتة (غير متشنجة)، كما لو كانت مستولى عليه من قِبل الشخصيات التي ابتكرها، ويحاكيها أيضًا، أي استشعار ما يجري داخلها. يمتلك الروائي قوة ما بعد شامانية تتمثل في قدرته على خلق شخصيات حية، واختراق ذاتيتها، وإعادة خلق عالم اجتماعي وطبيعي، ولكن على مستوى الخيال المعترف به على هذا النحو، يتمتع بقدرة ذات طبيعة إبداعية فائقة للواقع، كقدرة خلق الآلهة والأساطير التي تنبض بالحياة. ما بعد الشامان هم الكُتّاب العظماء، والموسيقيون العظماء، والرسامون العظماء، والشعراء العظماء.

يمتلك (رامبرانت) موهبة محاكاة تكشف، من خلال الوجه، عن روح نموذجه. وقد أشار (ميرو): «يصعب عليّ الحديث عن لوحاتي؛ لأنها دائمًا ما تنبع من حالة هلوسة». قهوة (بلزاك)، وكوكايين (كوكتو) وآخرون، والكحول، كلها تساعد الفنان على الدخول في حالة ثانية، أشبه بالغَشْيَة أو الهلوسة.

يُجسد الفلامنكو ببراعة اللحظة التي تستحوذ فيها الموسيقى على المغني أو الراقص فيدخل في حالة من الغَشْيَة. بعد أول «آه!»، لا يكون المغني قد أُلهم بعد، ولم يكن السحر قد سيطر عليه بعد، ثم فجأة قد تظهر القوة الروحانية «duende»، أي تحوّل الصوت؛ يشعر الجمهور الأندلسي بقوة ويعبر عن الوصول للسمو بـ«أوليه! olé» وهتافاته. يمكن للإبداع أن يتجلى أثناء النوم، عندما يجد الباحث حلًا لمشكلة لم يستطع حلها وهو في حالة اليقظة. يمكن أن تؤدي حالة السير أثناء النوم إلى صفاء ذهني فائق. أتذكر أنه عند عودتنا من رحلة، لم تجد زوجتي (إدويج) المفاتيح التي خبأتها أثناء غيابنا. بحثت عنها في كل مكان من دون جدوى، لأيام متواصلة. في إحدى الليالي، استيقظت وهي تمشي أثناء نومها، فتبعتها؛ ذهبت إلى الحمام، وصعدت إلى حافة حوض الاستحمام، وفتحت خزانة، ودفنت يدها تحت كومة من المناشف، وأخرجت مجموعة مفاتيح، ثم نزلت، وبدأت بالعودة إلى السرير. أخذت المجموعة من يدها برفق. في الصباح، عندما استيقظت، لوّحت بالمفاتيح أمامها. سألتني: «أين وجدتها؟» يدخل الوسطاء في حالة سير أثناء النوم للتواصل مع الأرواح. وعندئذٍ تتجلى الأرواح. في رأيي، الأرواح، مثل قوة إلهية مرشدة والملائكة الحارسة، كالآلهة، موجودة بالفعل، لكنها موجودة؛ لأنها تتغذى على عقولنا/ أدمغتنا وتحافظ عليها، وتزداد حقيقة وقوة عندما يتعاون مجتمع المؤمنين على تغذية وجودها والحفاظ عليه. اللافت للنظر أنه في حين أن جميع الإبداعات الفنية، بما فيها فن التمثيل، تتضمن مصدر إلهام ما بعد الشامانية أو ما دونها، فإنها أيضًا نصف شامانية؛ لأنها تتضمن تعاونَ وعي عقلانيًا ناقدًا يصحح وينقح ويلغي ويُعدل. لقد أدرك

(آينشتاين) بوضوح الجانب المزدوج للإبداع: الانغماس في ينابيع باطنية والصعود إلى أعلى مستويات الوعي: «أليس الفن تراجعًا مصطنعًا في مجال علم النفس، نحو أشكال الفكر البدائي، أي ظاهرة مماثلة لتلك التي تثيرها أي مخدرات أو مشروبات كحولية أو سحر أو دين، إلخ؟ الإجابة عن هذا السؤال: إن جدلية العمل الفني مبنية على «وحدة ثنائية» غريبة للغاية: ففيها تنجز عملية ثنائية: صعود مُندفع إلى أعلى مستويات الوعي، واختراق متزامن لأعمق طبقات الفكر الحسي».

الإبداع البشري مزيج من الغَشْيَة والوعي، والاستحواذ والعقلانية. وهكذا، يتعاون المنطق مع القياس، والعقلانية مع الحدس في جميع الإبداعات العظيمة، وهذه، عندما تبلغ السمو، تمنح المستمع أو المشاهد أو القارئ فتنة (بالمعنى الأقوى للكلمة) وسحرًا (بالمعنى المجازي للكلمة) لحالة ثانية من الذهشة والغبطة.

نعتبر حالات الغَشْيَة والاستحواذ في الشامانية[1]، وتلك الخاصة بطقوس مثل الكاندومبليه أو الفودو، حالات متطرفة. ولكن لدينا أيضًا حالات استحواذ، أو شبه غَشْيَة، متفاوتة الشدة، في لحظاتنا الشعرية أو الجمالية من الإعجاب والدهشة والفتنة والنشوة، في اللعب. باختصار، في جميع حالات النشوة لدينا. نبحث عنها أحيانًا في الكحول والمخدرات، وخاصة في الحفلات والحب.

نشعر بالغَشْيَة والاستحواذ في حماسة الحشود أو ذعرها، ككائن

(1) تعتبر الشامانية عامة الانتشار في المجتمعات القديمة في جميع القارات، وهي تعود الآن إلى العالم الحضري المعاصر.

جماعي يتشكل في ظل ظروف نفسية وديموغرافية معينة؛ حيث يتحول الأفراد مؤقتًا إلى خلايا مندمجة في كائن حي متعدد الخلايا في حالة هذيان، نشعر بها في اللحظات المحمومة والمتعصبة والخيالية عندما يسجل فريقنا لكرة القدم هدف الفوز.

يجب أن ندرك قوى الانبهار المذهلة التي نشعر بها في وجه نقابله بالمصادفة، في مترو الأنفاق، أو في لقطة مقربة لوجه نجم سينمائي[1]. إن قوة استمالة إيروس شبه الجاذبة تضعنا في حالة من الاستحواذ، غالبًا ما لا يمكن كبتها (حالة تُسمى ببساطة «الإثارة»). تكاد هذه الحالة أن تقترب من السحر، ويتوجها الجماع[2] بنشوة حقيقية. ما نسميه إباحية يحمل في طياته جانبًا صوفيًا ومقدسًا ودينيًا؛ حيث تؤدي عبادة القضيب والمهبل والقذف، من دون وعي، طقوسًا كونية.

الحالة الشعرية

لنعد هنا إلى الفكرة التي عبرت عنها مرارًا في أعمالي، وهي أن حياتنا مستقطبة بين النثر والشعر. وكما ذكرت في فصل سابق، فإن نثر الحياة يتعلق بالالتزامات والقيود والضرورات التي نؤديها من دون لذة. يتجلى الشعر في جميع حالات التواصل والتدفق والدهشة واللهو والحب، بما في ذلك حالات المتعة الجمالية التي تضعنا في حالة ثانية من العاطفة السعيدة. السعادة هي تحقيق حالة شعرية. «بإحساسنا بما هو شعري نعرفه ونفهمه؛ ولا يمكن معرفته وفهمه إلا من خلال الشعور به» (ليوباردي).

---

(1) D'où est issu un culte spécifique, celui des stars, cf. E. Morin Les Stars. Seuil, coll. «Points», 1972.

(2) من الغريب أنه باستثناء القطط، فإن فعل الحب يثير في البشر عنفًا متشنجًا يشبه الألم.

تشكل حالة الشعر أعمق طموحات البشر، تتراوح الحالات الشعرية بين الانفعال الجمالي والحماس، والإعجاب والدهشة، ومن ملذات الحياة اليومية البسيطة إلى سُكر الاحتفال، ومن النشوة الغرامية إلى النشوة، وهي تثير «حالة ثانية» تشبه، مع اشتدادها، الغَشْيَة والاستحواذ.

دعونا نلخص الكلمات التي تعبّر عن الأشكال المختلفة للحالات الشعرية، والتي تشمل حالات ما بعد الشامانية.

الحالة الثانية: كان لها في البداية تعريف مرضي، كاضطراب الوعي، وهو اضطراب خاص بالهستيريا أو التنويم المغناطيسي. هنا، نحررها من قيودها المرضية لنجعلها مصطلحًا عامًا للحالات الشعرية؛ فهي تتجلى في حالات التواصل كما في حالات الإبداع؛ فالهستيريا والتنويم المغناطيسي من السمات المتطرفة للحالات الثانية.

الحالة الجمالية: حالة من الانفعال الشعري، أو اللطيف، أو السعيد، يثيرها مشهد الطبيعة، أو حدث ما، أو سلوك بشري، وبالطبع، عمل فني.

حالة الدهشة: حالة من الإعجاب الشديد، وعاطفة جمالية مكثفة.

حالة التشارك: اتفاق وانسجام في الشعور أو الفكرة المشتركة جماعيًا.

حالة صوفية: بمعناها اليوناني الأساسي، ما يتعلق بمعرفة الأسرار؛ شعور بالدخول، وراء حجاب المظاهر، في تماهي/ اندماج مع أسمى الحقائق؛ تمنح هذه الحالة الصوفية شعورًا بالوحدة والانسجام. أما بالنسبة للمؤلف، فهو شعور قوي جدًّا بغموض ما هو موجود، «الغموض اليومي

لأنفسنا وللعالم»، كما قال (فلاديمير يانكيليفيتش)[1]. لا أستطيع مقاومة اقتباس جملة غريبة من (فرويد) في رسالة إلى أداميك:

«لكل فرد ذكي حدّ يبدأ يصير معه صوفيًا، حيث يبدأ وجوده الأكثر شخصية».

حالة الاستحواذ: حالة يسكن فيها المرء إله، أو روح، أو سلف، أو شيطان، أو شخص آخر، أو قوى مجهولة.

حالة الغَشْيَة أو السمو الروحي: حالة تحدث في حالات الاستحواذ، أو العرَّافة (بيثيا)، أو الوساطة الروحية، أو النشوة الجنسية، أو الإلهام الشعري أو الأدبي أو الموسيقي، أو الاحتفال. إنها الحالة المتغيرة، وهي محور التقاء حالات ما بعد الشامانية الأخرى. ميّز (چيل ليوتو)[2] بين الغَشْيَة الشامانية، والغَشْيَة التماثلية، والغَشْيَة التعاطفية؛ إذ يمكن أن تكون الغَشْيَة الشامانية «درامية» (أي عنيفة، متشنجة) أو متخشبة؛ أما الغَشْيَة التماثلية فتشمل حالات الاستحواذ إما بأرواح عُليا في العبادات والطقوس السحرية الدينية، مثل كاندومبليه، وإما بأرواح شريرة وشيطانية، كما كان الحال مع ممسوس (لودون)[3]؛ تشمل الغَشْيَة التعاطفية الحالات الدينية الصوفية (مثل حالة تيريزا الأفيلية أو ساباتاي تسيفي) التي تؤدي إلى

---

(1) بالنسبة لي، هناك تكامل بين العقل الصوفي والنقدي، مع الحفاظ على تناقضهما. كما يوجد تكامل بين الفكر العقلاني والفكر العاطفي.

(2) في محاضراته المخصصة لـ «الموسيقى والنشوة» والتي نقلها إلينا.

(3) وهو ما رُوي بطريقته الخاصة في فيلم جيرزي كاواليرويتز الرائع، «الأم جان الملائكة»، عام 1961.

النشوة، ولكن أيضًا الحالات الدنيوية، مثل الطرب[1] العربي والدويندي الخاص بالفلامنكو، والتي تمنح المتفرج غَشْيَة من التواصل السامي.

حالة الإثارة: التي تصل بالابتهاج إلى أقصى درجاته.

حالة الإلهام: شعور بنفس إبداعي ينعش الفنان وهو شكل من أشكال الغَشْيَة.

حالة مقدسة: حالة شعرية بامتياز؛ حيث تنطوي العاطفة على احترام لا حدود له، وإخلاص، وتقوى، وقد تفضي حتى إلى العبادة.

حالة عبادة: حالة من الحب الصوفي والمقدس للمؤلَّه أو الإلهي.

النشوة extase الغَشْيَة[2] transe

النشوة هي الإنجاز الأسمى للحالات الشعرية.

في كل ما هو شعر وحب ومشاركة، هناك إضعاف، وليس تثبيطًا، للمراكز الدماغية الفاصلة بين الذات والعالم... في هذه الحالات المتميزة من التواصل، يتأرجح المرء بين الانفصال وعدم الانفصال. إن الحماسة الصوفية (مثل حماسة يوحنا الصليب أو جلال الدين الرومي، والطقوس الهلوسية، والتأمل البوذي، والعبادة)، التي تُعدُّ بحدّ ذاتها غَشْيَة تواصلية، تؤدي إلى النشوة، وهي حالة مميزة تضعف فيها فصوص الدماغ التي تفصل الذات عن العالم، الذات عن الآخر، الذات عن الـ«نحن»، بل تثبط.

---

(1) يذكر چيل ليوتو أن أحد الخلفاء الأمويين في القرن الثامن مزق ثيابه من شدة الإعجاب تحت تأثير موسيقى أحد كبار المغنين في عصره.

(2) الغَشْيَة أو الغَيْبَة هي حالة من تغير الوعي عن حالة الإدراك والوعي الكامل الطبيعي. يترافق حدوث الغشية مع التنويم الإيحائي وحالات التأمل والتواصل الروحي.

النشوة هي الحالة المتناقضة التي يجد فيها المرء نفسه بفقدان ذاته، ويحقق فيها اكتماله بنسيانها.

تتيح النشوة شعورًا بالاندماج مع المعبود، المطلق، أو الكل.

طرق النشوة متعددة: قد تكون تلك التي تتسم بشدة الغَشْيَة الصوفية، أو الاحتفال، أو الثمل، أو العاطفة، أو على العكس، تلك التي تتسم بالسكينة المتطرفة للتأمل المتسامي.

إذا كانت حالة الشعر أعمق طموحات البشر، فإن النشوة هي أسمى طموحاتها[1].

هل تخبرنا النشوة عن إمكانية تجربة ما لا يعبّر عنه؟ هل هي تواصل مع ما لا يُدرَك؟ هل يمكننا هنا افتراض أن النشوة، من خلال التفاعل الدماغي مع الواقع الكمي[2]، ستسمح بهذا التواصل؟

في أقصى حدود السامسارا، توجد الحياة «العادية»، الآلية والمميكنة والمستعبدة إلى حدٍّ ما. ثم، بالابتعاد عنها، تظهر حياة التواصل الشعرية التي تصل، من خلال الغبطة، إلى مداخل النيرفانا النشوانية.

الحدس

هل الحدس صفة معرفية يمتلكها عقلنا/ دماغنا، خارج نطاق التفكير والتجربة؟ هل هو نتاج واعٍ لعملية لاواعية؟ دعونا نميز بين نوعين من

---

(1) ميّز چيل ليوتو بوضوح بين الغَشْيَة والنشوة، مع أنه يمكن الخلط بينهما؛ إذ يمكن أن تتحول الغَشْيَة الشديدة إلى نشوة؛ لكنه يكتسب نعيمًا وسكينةً بالغة وشعورًا بالمطلق.

(2) يعتقد الفيزيائي (روجر بنروز) أن القدرات غير الخوارزمية للوعي تأتي من ارتباطها بالفيزياء الكمومية.

الحدس. هناك حدس، في الواقع عقلاني للغاية، يميز فيه العقل الحدسي، من خلال حركات غير محسوسة في ملامح المحاور، المشاعر التي يختبرها ويخفيها. وهكذا، فإن الحصان المحاسب «هانز الذكي»، الذي كان يجيب عن أسئلة حسابية، أعطى، بالنقر بحافره، الرقم الصحيح عندما لمس على وجه سيده (الذي اعتقد الأخير أنه مُحكم العقل) رضا عن النتيجة.

غالبًا ما يغذى الحدس المتعلق بالآخرين بما يسميه (برغسون)، في تعريفه، «نوعًا من التعاطف مع موضوع المعرفة». أليس هذا التعاطف بداية المحاكاة؟

هناك حدس آخر، يبدو غير عقلاني، مثل حدس اقتراب الخطر. هذا النوع من الحدس، مثل حدس بعض الحيوانات التي تتنبأ بقدوم زلزال، ربما ينشأ، مثل حدس «هانز الذكي»، من رصد إشارات غير محسوسة للبشر، ربما من خلال «حاسة سادسة». لكن حدس الموت من بعيد لشخص عزيز أو حدث مستقبلي لا يمكن أن يأتي من رصد هذا النوع من الإشارات، بل من تواصل ذي طبيعة مجهولة. هناك بلا شك حالات من التخاطر الزائف، أو من الاستشعارات الكاذبة، لكن بعض الحالات الحقيقية التي لا يمكن أن تكون وليدة المصادفة تكفي لإثبات قدرة العقل/ الدماغ على إرسال أو التقاط إشارات تتجاوز حدود حواسنا. قد تعزز هذه الحالات فرضية أن العقل/ الدماغ البشري يمر بلحظات تتجاوز الزمان والمكان.

من منظور المعرفة، كيف اكتسبت الحيوانات معرفتها بالأطعمة الضرورية لها وتلك الضارة بها؟ كيف تتعرف القطط على الأعشاب التي تشفيها عندما تمرض؟ كيف تشعر بعض الحيوانات، كالكلاب أو الماعز،

بالزلازل قبل وقوعها؟ أليست هذه الاحتمالات التنبؤية كامنة أو ضامرة في أدمغتنا؟ ألم تتواصل الشامانية من جديد مع أنماط المعرفة المنتشرة في عالم الحيوان وحتى النبات؟ ولكي نحاول فهم عملية اكتساب المعرفة من خلال وسائل غير عقلانية على ما يبدو، يمكننا أن نأخذ فرضية (چيريمي ناربي) حول المعرفة الشامانية التي تعمل من خلال لغة الحياة العالمية، وهي الحمض النووي، وتعميم هذه الفرضية على عالم الحيوان والنبات بأكمله. يمكننا أيضًا تخيل مسار تخاطري، ولكن أيضًا الانطلاق من الفكرة الأساسية القائلة بأن كل ما هو منفصل غير قابل للانفصال، وأن عدم القابلية للانفصال تتجلى بطريقة معينة من خلال الحدس الشاماني أو غيره.

قد تكون المعرفة الشامانية لغزًا، يمكن حله باكتشاف نمط اتصال لم يُكتشف بعد، كما كان الحال مع الكهرومغناطيسية التي اكتشفها (ماكسويل). أعتقد أن هناك أنماط اتصال يمكننا اكتشافها، تمامًا كما اكتشفت مؤخرًا موجات الجاذبية، التي لم تكن قابلة للرصد سابقًا.

أما الإبداع، من ناحية أخرى، فهو لغز! يمكن تحفيزه أو إطلاقه من خلال تفاعلات غير مفسرة بين مستوى واقعنا المادي والمستوى الكمي للواقع، ومن المرجح أن تحفز هذه التفاعلات الإبداع في كل من التطور البيولوچي والإبداع البشري للعقل/ الدماغ. والأهم من ذلك كله، أعتقد أن القوة الإبداعية بعيدة كل البعد عن أي تصنيف، وتظل في النهاية «لغزًا لا يُوصف» (كلي).

لقد استطعنا القول إن هذا الإبداع، وخاصة في مجال الأعمال الفنية، لا ينفصل عن حالة من الغَشْيَة أو الاستحواذ، حتى وإن كانت مُخففة (ما

يُسمى إلهامًا بشكل عام).

الخلاصة

تجلى إبداع آخر في التطورات الرجعية المتبادلة: العلم/ التكنولوچيا/ الاقتصاد، الخاصة بالعصر الغربي الحديث. وقد أدت هذه التطورات إلى نشر، ثم إطلاق، القوى البشرية على الطبيعة وعلى البشرية نفسها، من خلال ظهور وانتشار تقنيات تُمكن من تسخير الطاقات المادية (البخار، الكهرباء، الذرة)، ثم تطوير آلات صناعية متزايدة القوة والتعقيد، بالتزامن مع إنتاج أسلحة الموت الجماعي، لتصبح أسلحة إبادة. لقد دُفعت حضارتنا المعولمة بالفعل بإفراط مدمر يهين المحيط الحيوي والمحيط البشري. وقد تناولت هذه المسألة باستفاضة[1].

يتضح بشكل متزايد أن حضارة القوة التكنولوچية والرفاهية المادية قد أهملت تطلعات واحتياجات العقل والنفس البشريين. لقد تجاهل فرط نشاطها الحياة الداخلية، والحاجة إلى السلام والسكينة، مانحة هذه الاحتياجات فترة راحة أو إجازة محددة، ثم تعود إلى النشاط المفرط، والوقت المدروس، وهيمنة الحسابات والربح والمصلحة الذاتية.

مع اجتياح التغريب للشرق، فإن تيه العقول الغربية (وهذا المصطلح مناسب) هو ما يدفع إلى اللجوء إلى اليوغا والتأمل والبوذية.

لنعد إلى قراءة رواية «المؤسسة» لـ (إسحاق أسيموف)، وهي عمل خيال علمي رائع. يُنشئ حكماء إمبراطورية هائلة بين المجرات في طور الانهيار

(1) Cf. Terre-Patrie, Seuil, 1993; La Voie, Fayard, 2011.

مؤسسة على كوكب تيرمينوس، تحمي موسوعيًا جميع الإنجازات العلمية والتكنولوچية لحضارتهم، للإفلات من التدهور والفناء. ومع ذلك، يستمر التدهور، ولكن في اللحظة التي يبدو فيها أنه لا رجعة فيه، يعلم الناجون برسالة ثلاثية الأبعاد مَنْ مُنشئ المؤسسة الراحل. يكشف هذا أن المؤسسة كانت ذريعة لإخفاء إنشاء مؤسسة أخرى، مخصصة لتنمية القوى الروحية فقط، القوى الصالحة الوحيدة، والنافعة الوحيدة، والقادرة على خلق حياة طيبة، ستعيش هذه المؤسسة.

تعبّر مؤسسة (أسيموف) عن مغامرتين منفصلتين للروح البشرية. إحداهما تسعى خارجيًا إلى الكشف عن أسرار العالم المادي، والحياة، والمجتمع، بل وامتلاكها، وقد طورت علمًا قادرًا على معرفة كل شيء، ولكنه غير قادر على معرفة نفسه وإنتاج، اليوم، ليس فقط توضيحات مفيدة، بل عمى ضار وقوى مرعبة. أما المغامرة الأخرى فتسعى، في داخل النفس، إلى معرفة الذات، والتأمل فيما تعرفه وما لا تعرفه، وتغذية نفسها بالشعر الحيوي، والشعور بالحركة والجمال والإعجاب. الأولى هي مغامرة غزو ثالوث العلم/ التكنولوچيا/ الاقتصاد. والثانية هي مغامرة الفلسفة والشعر والفهم والرحمة.

الفصل الثامن

ما بعد الإنسانية

في صورتها النهائية، لن تكون الروبوتات عبيدًا للبشرية ولا أعداءً لها، بل ستكون البشرية نفسها، مُتَحولة. لن تحل الروبوتات محل البشر: بل ستصبح روبوتات.

(إيتو توشيهار)

لم يسبق للبشرية أن جمعت كل هذه القوة مع كل هذا الفزع، كل هذا القلق وكل هذا اللعب، كل هذه المعرفة وكل عدم اليقين هذا. القلق والعبث يتقاسمان أيامنا.

(بول ڤاليري 1932م)

المحركات التي تعمل على تشغيل المركبة الفضائية الأرضية هي العلوم والتكنولوچيا والاقتصاد. إنها تقودنا نحو مستقبلين متباعدين ومتناقضين. كلاهما قد بدأ بالفعل.

كارثة

الأول محفوف بالتهديدات. أولًا، تتسم مغامرة العولمة[1] بالالتباس

(1) Cf. La Voie, op. cit.

العميق، ويصعب قياس الأهمية النسبية لجوانبها السلبية والإيجابية: فضروراتها ـ النمو والتنمية والاستغراب ـ تنتج عمليات إيجابية تقوض استبداد المجتمعات التقليدية، وتُنشئ مناطق ازدهار، وتعزز التبادل الثقافي الدولي، لكنها في المقابل تنتج عمليات سلبية: تحول الفقر إلى بؤس بشكل هائل، وتفاقم التفاوت باستمرار، وتدمر التضامن، وتعطل الحضارات التقليدية والقواعد الطبيعية للمحيط الحيوي.

لم يؤدِ التوحيد التقني والاقتصادي للعالم وانتشار الاتصالات إلى وعي بمصير إنساني مشترك، بل على العكس، إلى تراجع مفرط نحو الهويات العرقية والدينية؛ ليس اتحادًا عظيمًا، بل انتشارًا للاضطرابات والانقسامات السياسية والثقافية التي تتفاقم لتتحول إلى صراعات. وبعيدًا عن تناقضاتها، فإن عملية العولمة، التي تستمر بلا هوادة، تميل إلى التزايد والتراكم والجمع بين العمليات التي تفضي إلى سلسلة من الكوارث. ملاحظة:

إن التدهور المستمر للمحيط الحيوي، والذي لم ينجح أي شيء في إبطائه، لا يشمل التلوث الحضري والصناعي فحسب، ولا تراجع التنوع البيولوچي، ولا الاحتباس الحراري، ولا إزالة الغابات على نطاق واسع، ولا تدمير المحيطات فحسب، بل يشمل أيضًا التعقيم الهائل للتربة المخصصة للزراعات الأحادية في الزراعة الصناعية، مما ينتج عنه أغذية موحدة، عديمة الطعم، مشبعة بالمبيدات الحشرية، وتشكل خطرًا على صحة سكان الكوكب.

لقد أدت الهيمنة العالمية للمال على الاقتصادات والدول إلى سيادة الربح الفوري، وإخضاع الدول القومية والبشرية لإمبراطوريته. وقد أدى غياب التنظيم الحقيقي للاقتصاد المعولم إلى ظهور عمليات التخصيصات

المضاربية[1]، والقوة المالية الهائلة للمافيات، وهروب رؤوس الأموال، ثم الأزمة المالية لعام 2008، التي لا تزال متقطعة، مما يزيد من تفاقم محنة الفقراء والطبقات المتوسطة.

سيشهد الكوكب بشكل متزايد نوعين من الأزمات الحضارية؛ أزمة الحضارات التقليدية تحت تأثير الاستغراب، وأزمة الحضارة الغربية؛ حيث لم ينتج الرفاه المادي بالضرورة حياة كريمة؛ حيث هيمنت الحسابات والربح وتنميط الحياة. تؤدي هاتان الأزمتان إلى تزايد عدم الرضا والاستياء والإحباط والتمرد؛ وترتبط هاتان الأزمتان بأزمة الإنسانية التي لا تستطيع أن تصبح إنسانية. إن انتشار الأسلحة النووية وتصغيرها يزيد من مخاطر استخدامها في سياق تنامي التعصب والعمى. يُضاف إلى ذلك أشكال جديدة من الحروب (الصواريخ والطائرات بدون طيار والهجمات الانتحارية التي تقتل السكان عشوائيًا) والهجمات السيبرانية في الحرب الإلكترونية التي ستضرب الشبكات العصبية الحيوية للمجتمعات. إن انتشار مصادر الصراع وحالات الحرب يثير إطلاق العنان للتعصب العرقي والقومي والديني، مما أدى إلى تفكك دول مثل ليبيا والعراق وسوريا، وهي صراعات تكتسب طابعًا دوليًا وتنشر تداعياتها في جميع أنحاء العالم. لقد أصبح تدهور العلاقات بين العالم الغربي والعالم العربي الإسلامي مصدرًا متناميًا للفتنة والعنف.

---

(1) هي طريقة في إدارة محافظ الاستثمار تهدف إلى تحقيق عوائد أعلى من خلال شراء أصول أو أدوات مالية ذات مخاطر عالية، مثل الأسهم الصغيرة أو الأصول التي يعتقد أن أسعارها ستتغير بشكل ملحوظ، تختلف هذه التخصيصات عن الاستثمارات التقليدية التي تركز في الحفاظ على رأس المال أو تحقيق عوائد مستقرة على المدى الطويل.

إن تزايد الهجرات بسبب الحرب والاضطهاد والفقر يثير ردود فعل معادية للأجانب وعنصرية متزايدة في الدول التي ترفض استقبال اللاجئين أو تحتجزهم في مخيمات.

إن كسل العالم السياسي، الذي يعيش يومًا بيوم، والعالم الفكري الذي يعمى عن التعقيد، وغياب الوعي واسع النطاق، كلها عوامل تسهم في السير نحو الكارثة.

لذا، كل شيء يدفعنا إلى التفكير في احتمالية مستقبل تكثر فيه الكوارث، كل منها يثير الأخرى، مما سيؤدي إلى كوارث كبرى تؤثر على جميع جوانب الحياة البشرية، مسببة تراجعًا عامًا في الحضارة، مما سيؤثر على الحريات والديمقراطيات والإنجازات الاجتماعية التي لا تزال قائمة. بالطبع، هذه مجرد احتمالات؛ لا شيء مؤكد، لكن لا يمكننا النجاة من هذا الاحتمال إلا بتغيير المسار.

وعلاوة على ذلك، فقد بدأت بعض التراجعات السياسية، بما في ذلك في أوروبا. وهذا قد يسبب صراعًا نوويًا وهو أكبر كارثة وأطولها أمدًا.

وعد

في الوقت نفسه، يُمهّد ثالوث العلم/ التكنولوچيا/ الاقتصاد نفسه، الذي يقودنا عادة إلى الكوارث، لمستقبل سعيد للبشرية بتحريرها مما كان يشكل حتى الآن أفظع حتمياتها.

تنتج المحركات نفسها مستقبلين متعارضين.

كما تنبأت عام 1951 في كتابي «الإنسان والموت»، ستكون التطورات

الطبية قادرة على تأخير سن الموت مع القضاء على استفحال الشيخوخة، وستسمح لنا بالشيخوخة الشابة وتأجيل الموت إلى أجل غير مسمى (ولكن ليس إلى ما لا نهاية في الواقع، لن يقتصر دور الطب التنبؤي على الوقاية من مخاطر الأمراض مسبقًا، بل والأهم من ذلك، أن الخلايا الجذعية ستصلح الأعضاء المعيبة (الطب التجديدي)، أو ستستبدل بأعضاء اصطناعية (القلب والكبد والرئتين). هذا ليس وهمًا على الإطلاق.

لكن من الوهم حقًّا أن يعتقد العديد من أتباع نظرية الإنسانية العابرة أن البشر سيبلغون الخلود. من المرجح أن يتمكن البشر من تحقيق حالة تمديد الحياة، أي التوقف عن معاناة الموت الطبيعي، ولكن من دون النجاة من حتمية الموت.

ستطور البكتيريا والڤيروسات قدرات مقاومة من خلال الطفرات، وتسبب أمراضًا قاتلة جديدة. وتشكل المستشفيات بالفعل أخطر ما فيها؛ لأنها معتادة على العلاج بالمضادات الحيوية. لن تقضي على الوفيات العنيفة، ولا الهجمات والاغتيالات، وسيبقى الموت تهديدًا دائمًا. لن تجنب الكوارث الطبيعية التي تهدد مستقبل الكوكب مَنْ طالت حياتهم. وأخيرًا، بافتراض بقاء عدد مُعين ممنْ طالت حياتهم إلى أجل غير مسمى، سيقعون ضحية لتبريد الشمس وانقراض جميع أشكال الحياة على الأرض. وإذا افترضنا أن جزءًا أخيرًا من الجنس البشري هاجر إلى كوكب آخر، فسوف يعاني موت شمس ذلك الكوكب. وإذا افترضنا أنه نجح في الهجرة من كوكب إلى آخر، فسوف يتأثر وينقرض بموت الكون. وبالتالي، سيستمر الموت في التطفل على حياة الإنسان ووعيه. في حين تبدو إطالة الحياة وبصحة جيدة مرغوبة، نظرًا لطولها وصعوبة

تحقيق الرضا والخبرة، فإن تكاثر أمثال (متوشَلَح)[1] سيُثير مشكلات، لا سيما في عالم تتحكم فيه قوى الفوضى. ستكون لدينا نخبة من الأغنياء والمتنفذين، يستفيدون من إطالة الحياة بأنانية، فيعزلون أنفسهم في أحياء فاخرة محصنة ومدرعة، ومحروسة، ويفقدون تدريجيًا صفاتهم الإنسانية الحقيقية، ويحتقرون بقية البشرية، التي ظلت عرضة للموت، ومكروهة من هذه البشرية، من دون أن تفقد، مع ذلك، شعورها بالقلق من الموت الذي سيلحق بها عاجلًا أم آجلًا.

علاوة على ذلك، ستؤدي إطالة الحياة إلى انخفاض هائل في المواليد، وبالتالي في التنوع البشري والإبداع. ستقضي عمليات التلاعب بالحمض النووي الممكنة الآن على المنحرفين (الذين يغيرون مسار التاريخ)، وبالتالي على الأصليين، وبالتالي على المبدعين. لو أن التحكم الجيني والتدخلات في الأجنة، كما بدأ بالفعل، أتاحت حقًّا إمكانية إنجاب أطفال حسب الطلب، وفقًا لرغبات الوالدين أو السلطة الاجتماعية، لما كان هناك أي تنوع بشري، ولتم القضاء على كل إبداع لصالح التنميط. وهكذا، سيتحول مستقبل إطالة الحياة المبهج إلى مستقبل مقلق، وسيصبح، عاجلًا أم آجلًا، نزعًا كارثيًا للطابع الإنساني.

المنظور التحرري الثاني لما بعد الإنسانية هو إزالة قيود العمل وصعوباته من خلال الأتمتة واسعة النطاق، التي تجريها الآلات الذكية: الحواسيب والروبوتات. من المقرر إطلاق سيارات ذاتية القيادة بدون سائق بشري

---

(1) «متوشَلَح» هو اسم شخصية من الأقدمين في التوراة، يُعرف بكونه أطول الناس عمرًا؛ حيث ذكرت أنه عاش 969 سنة، هو ابن إدريس، ووالد لامك، وجد نوح. تُعرف هذه الشخصية بكونها رمزًا للخلود والعمر الطويل.

في عام 2018؛ والروبوتات الذكية قادرة بالفعل على أداء المهام المنزلية، ومؤانسة الأشخاص الوحيدين (روبوتات الدردشة chatbots)، وسرعان ما ستصبح رفقاء إيروسيين. يقدم الحاسوب (واتسون) استشارات قانونية بدقة تصل إلى90%. وُلد إنسان آلي (سايبورغ) في جامعة هارفارد، وهو كائن اصطناعي يعيش بقلب فأر. سيبدأ استعمار المريخ الخاص في سبتمبر 2023 بإرسال بعثة من أربعة مستعمرين (رجلان وامرأتان)، تسبقها عمليات نقل للمواد اللوجستية والمواد الاستهلاكية.

ستحدث آلات الطباعة ثلاثية الأبعاد والوصول المجاني إلى الأعمال الثقافية عبر الإنترنت تحولًا جذريًا في نظام السوق. ستؤدي الأتمتة الواسعة النطاق إلى القضاء على 70% إلى 80% من الوظائف. عندها سيصبح فرض الدخل الأساسي الشامل ضروريًا. ومن هنا تأتي الحاجة إلى ثورة حقيقية تُحدث تحولًا في العلاقات الاجتماعية والحياة الشخصية؛ حيث يمكن للتعاون أن يقضي على الأنانية، وحيث يمكن للتأجير أن يقضي على الملكية، وحيث ستتحول الرأسمالية، من الهيمنة، إله قطاع اقتصادي مغامر. الخوارزميات، التي نراها بالفعل تترسخ في كل مكان، قد تحكم القرارات.

إن حلم مجتمع بشري مؤتمت بالكامل، تحكمه قوانين خوارزمية، لن يقودنا إلى ما هو فوق إنساني، بل إلى ما هو غير إنساني. إن حلم العقلانية الخوارزمية سيميل إلى اختزالنا في آلات تافهة. إنه مثال عبثي، لا يمكن تحويل البشر إلى خوارزميات، لا يمكن تحويل التاريخ إلى خوارزميات، ولا يمكن التنبؤ به. تُتخذ القرارات البشرية المهمة، وخاصة السياسية منها، في مواقف عشوائية؛ ولا يمكن إزالة عدم اليقين الكامن

في المغامرة البشرية؛ وأخيرًا، كل ما هو جوهري للإنسان ـ الحب، والمعاناة، والفرح، والشقاء ـ يفلت من الحساب. لا يمكن خوارزمية شعر الحياة. لا يمكن خوارزمية أهم شيء أو أتمتته. فقط تشغيل الآلات التافهة يمكن أن يكون كذلك. لكن الأتمتة، الخوارزمية، التي تعتبر هذه المرة بمثابة الخدم لا الأسياد، يمكن أن تسهم في أن يكرس البشر أنفسهم، في جدلية إبداعية بين العقل والعاطفة، والنثر والشعر، لجوهر تطلعاتهم في الحياة.

دعونا الآن ندرس مفهوم ما بعد الإنسانية بحدّ ذاته، الذي يشمل الإنسان كإنسان طويل العمر، مُحسن، مُعدل، ومُحرر من العمل بواسطة الآلات الذكية في آن واحد.

من الواضح أن التدخل في الولادة والموت، والترقيع بين البيولوچي والبشري، وحوسبة الآلات، قد تؤدي إلى نشوء إنسان ميتا بشري[1].

قد يصبح استعمار الفضاء الخارجي، المستحيل حاليًا، ممكنًا، وسيصبح الإنسان الميتا بشريًا كوزموبيتيك (وسيطًا بين الإنسان وكائن كوني جديد). قد يحولنا غياب الجاذبية في الفضاء بين النجوم إلى بشر طيور. وهكذا، يمكن تصور ظهور نوع جديد ما بعد بشري، بوسائل اصطناعية. لكن نوعًا جديدًا، وليدًا من علم بارد وتكنولوچيا غير أخلاقية، سيكون أكثر ميلًا للسلطة والنفوذ؛ ألن يكون حينها أكثر قسوة من سابقه؟ ألن ينسينا هذا ميولنا للطف والرحمة والصداقة، وهي مشاعر لا تزال موجودة لدى الإنسان العاقل/ الإنسان المجنون؟

---

(1) Cf. L'Homme et la Mort, op. cit.

إذا كانت العمليات المؤدية إلى التحول إلى ميتا إنسان حقيقية، فسيبقى الخلود أسطوريًا. وكما طرحت طبيعة الإنسان الخارق مشكلة، لما لها من نسخ نيتشوية ونازية وستالينية (أسطورة الإنسان الجديد)، فإن طبيعة الميتا إنسان تطرح مشكلة أيضًا. هل سيكون جزءًا من سلالة ما بعد الفرعونية من الإنسان ـ الإله، وسلالة ما بعد النازية الأسياد، وسلالة ما بعد التكنوقراط من المديرين الخارقين؟

ألا ينبغي له أن يكون إنسانًا ليس معدلًا كميًا («معززًا») ولكن محسنًا نوعيًا؟

دعونا أخيرًا نتناول فرضية (چويل دو روسناي)، المنبثقة من «الإنسان التآزري»: فهو يفترض أن كائنًا حيًا ضخمًا، مزودًا بدماغ كوكبي، سينبثق من الروابط التكاملية بين العقول البشرية والآلات الذكية والإنترنت وجميع وسائل الاتصال الأخرى: سيكون كائنًا بيولوچيًا ـ أنثروبو ـ سيبرانيًا ـ إلكترونيًا، رقميًا، واعيًا بذاته. وبالتالي، سيكون كائنًا ميتانثروبيًا، ليس في صورة فرد، بل في صورة كائن حي فائق يضمهم جميعًا... ومع ذلك، لا يخبرنا (چويل دو روسناي) عما سيؤول إليه الوعي الفردي في هذا السيناريو، سواء أكان مصيره الزوال أم التطور. أصبح من الممكن الآن تصور ما بعد الإنسانية بأشكال مختلفة، لكنه يتطلب منا نحن ـ البشر ـ وبدءًا من الآن، تأملًا في الحالة الإنسانية والمغامرة، ووعيًا بالفرص والمخاطر الكامنة في التعقيد الأنثروبولوچي للإنسان العاقل/ الإنسان المجنون، والخالق/ الصانع، والميثولوچي، والديني، والاقتصادي، واللاعب، ووعيًا بأثمن ما في البشرية.

تفترض ما بعد الإنسانية تجاوز الإنسانية الحالية، وتفترض أنه كما تزامن ظهور الإنسان العاقل مع اختفاء إنسان نياندرتال، والإنسان المنتصب، وغيرهما من أنواع أشباه البشر، فإن مرحلة ما بعد الإنسانية ستتزامن مع انقراض البشر. لكن التقدم الحقيقي لما بعد الإنسانية يتطلب الحفاظ على الصفات التي لا تزال غير متطورة وهشة، وهي الروح والعقل والقلب، لدى البشرية.

يُعلّمنا وعينا أن مستقبل البشرية يعتمد أيضًا على مستقبل الوعي.

من المؤسف أن التحول ما بعد البشري بدأ تحت وطأة الدفع الأعمى للمحرك الثلاثي العلمي/ التقني/ الاقتصادي الذي يدفع سفينة الفضاء الأرض، بينما لا يزال التحول الأخلاقي/ الثقافي/ الاجتماعي، الذي يزداد أهمية لهذا التحول، معلقًا. والأسوأ من ذلك، أن الانحدار الأخلاقي والنفسي والعاطفي يرافق التقدم العلمي والتقني والاقتصادي.

إن تجديد إنسانية تغدو كوكبية وتتجذر في الوطن الأرضي ضروري لمنع سيطرة الأنواع الجديدة من الأسياد، الذين يتحكمون بجميع السلطات، بما في ذلك سلطات إطالة الحياة، على جميع البشر المستعبدين. يتطلب التحول البيولوچي ـ التقني ـ الحاسوبي (أو التحولات) قبل كل شيء أن يكون مصحوبًا، ومنظمًا، ومسيطرًا عليه، وموجهًا بتحول أخلاقي ـ ثقافي ـ اجتماعي. هذا ضروري لتجنب قوة الآلات المفكرة، التي سنعتمد عليها، حتى لو اعتمدت علينا، والتي ربما تستطيع تحرير نفسها منا، أو

حتى اكتساب الوعي، كما تنبأ (غوتهارد غونتر)[1] والهيمنة على مصير ما بعد الإنسان.

يدفع تحول الإنسانية العابرة قوى مجهولة وغير مسيطر عليها، غافلة عن المصير الذي تنتجه. يتطلب التحول الإنساني، بلا شك، القوى اللاواعية للبشر، ولكنه يتطلب أيضًا القوى الأخلاقية والتأملية الواعية للأفراد. ستكون القوى ما بعد البشرية الجديدة غير إنسانية لو لم تكن تحت سيطرة إنسانية متجددة إلى أقصى حدٍّ. دعونا نضيف أن مروجي التحول ما بعد البشري عالقون في طريقة تفكير مبتهجة تحجب المستقبل الكارثي الذي سينتجه الثالوث الجامح: العلم والتكنولوچيا والاقتصاد.

إنهم يتجاهلون أن العلم، المرتبط الآن بالتكنولوچيا في العلوم التقنية، هو آلة هائلة لا يمكن السيطرة عليها تعمل من أجل الخير والشر، والحياة والموت. إنهم يجهلون التعقيد المتناقض الكامن في ثالوث العلم والتكنولوچيا والاقتصاد.

إنهم يجهلون أن عنصر الواقعية في تنبؤات علماء الإنسانية العابرة قد عقمه جهل العمليات الكارثية التي ستلوث الإنسانية العابرة.

إنهم يجهلون أن المستقبلين، اللذين يحكمهما الثالوث نفسه، في حالة تفاعل وردود فعل مع بعضهما البعض.

وفوق كل شيء، يجهلون أن تجنب الكوارث وتجنب وحشية ما بعد

---

(1) La Conscience des machines: une métaphysique de la cybernétique [Das Bewusstsein der Maschinen], suivi de Cognition et volition, avant - propos d'Edgar Morin, L'Harmattan, 2008.

الإنسانية يتطلبان إصلاحًا فكريًّا وأخلاقيًّا عميقًا. إنهم يتجاهلون البربرية الرجعية المتأصلة في حضارتهم المتقدمة.

إنهم يتجاهلون أن الجنون كان حاضرًا دائمًا في التاريخ البشري.

إنهم يتجاهلون، في هوسهم الكمي بالحياة المعززة، الحاجة الجوهرية لجودة الحياة. إنهم يتجاهلون التطلع إلى حضارة من نوع آخر، آخذة في الانبثاق في كل مكان تقريبًا في العالم، مقاومة لهيمنة الحسابات والربح والأنانية ومجهولية الهوية، والتي تحركها الحاجة إلى الإنجاز والمشاركة والحب والحياة الشعرية.

إنهم يتجاهلون أن الأخلاق والسياسة لا يمكن صياغتهما إلا في ظل وعي بالتعقيدات البشرية.

إنهم يتجاهلون أن المصير المشترك لجميع البشر على الأرض يتطلب وعيًا مشتركًا بالوطن الأرضي الذي يشمل الأوطان من دون أن يلغي وجودها.

إنهم يتجاهلون أننا بحاجة إلى إنسانية أنثروبو ـ بيولوچية ـ كونية. ومن هذا التطلع وهذا الوعي المزدوج يمكن أن ينبثق مسار جديد لمستقبل آخر.

الخاتمة

معرفة الجهل تقود إلى ما لا يُوصف.

(نقولاس الكوزاني)

اللامحدود واللامتناهي لا غنى للإنسان عنهما،
تمامًا كما الكوكب الصغير الذي يعيش عليه.

(فيودور دوستويفسكي)

عود ثقاب مضاء في الظلام لا ينير مساحة صغيرة فحسب، بل يكشف عن الظلام الهائل الذي يحيط بنا.

تشجعنا رحلة هذا الكتاب على إدراك العلاقة المتناقضة، وإن كانت متكاملة، بين المعرفة والجهل والغموض، والتأكيد عليها.

إن التناقض الذي يؤدي إلى كل معرفة عميقة ليس خطأً، بل هو الحقيقة المطلقة التي يمكن تصورها؛ لذلك، يجب أن ندرك صحة المفارقات والتناقضات باعتبارها التجليات النهائية للمعرفة.

بإمكاننا تطبيع المجهول وما لا يمكن معرفته، وتبسيطه، وعقلنته، وبالتالي استبعاده.

ستعود هذه المفارقات للظهور مع كل تقدم في المعرفة. يمكننا تغطية كل شيء بالتفسيرات، لكن التفسيرات مبنية على افتراضات غير قابلة

للتفسير. إن التفسير بواسطة الانبثاق الذي اقترحناه لنشأة كوننا هو في حدّ ذاته غير قابل للتفسير.

وتفسير غنى الحياة الوافر من خلال إبداعها غير قابل للتفسير أيضًا.

قد نجد الواضح جليًّا، لكن الواضح نفسه يحمل في طياته لغزًا عظيمًا.

المعرفة المعقدة هي الطريق الضروري إلى المجهول، وإلا لظللنا جاهلين بجهلنا.

لقد جعلنا علمنا على دراية بآليات الآلة، لكننا جاهلون بالآلة نفسها.

سرّ العالم كله يكمن في داخلنا، لكنه بعيد عن متناول عقولنا، ونحن نتجاهل ما نعرفه.

في كل مكان توجد معرفة تنظيمية وإبداعية هائلة لا نعرف عنها شيئًا. إن الدهشة الكامنة في بداية الفلسفة هي ما يكمن في نهايتها.

الكون مذهل. الحياة مذهلة. الإنسانية مذهلة.

الكون عجيب ومرعب. الحياة عجيبة ومرعبة. الإنسانية عجيبة ومرعبة.

الحياة تسير وهي نائمة. البشرية تسير وهي نائمة.

إن إدراكنا لسيرنا أثناء النوم أيقظنا من دون أن يقلق نومنا، بل أوصلنا إلى معرفته. إنه يعرفنا بالمجهول وما لا يتصوّر.

هذه هي مساهمة الأعمال العظيمة، كما يقول لنا (باتريك شاموازو):

الفنانون العظماء، الأعمال العظيمة، ستفتح دائمًا بابًا على أفق لا حدود له، ولا يتصور، وهذا ما يبدو لي مهمًا في هذه البادرة الفنية. ليس المعنى

المُقدم، أو هذا الفقر الذي يطمئننا، بل باب يفتح حقًّا، ولن يغلق أبدًا، وسينقل إلينا بلا نهاية طاقات ما يستحيل إدراكه[1].

لا يسعنا إلا أن نأمل في صحوة الوعي وقوة الحب.

الغموض لا يقلل بأي حال من قيمة المعرفة التي تؤدي إليه. إنه يدرك القوى الخفية التي تسيطر علينا، والتي ليست في المقام الأول حتميات، بل هي أشبه بـ«دايمون»، داخلية وخارجية بالنسبة لنا، تسيطر علينا وتقودنا إلى الجنون، الثمل أو النشوة.

إنه يحفز ويقوي الإحساس الشعري بالوجود. إن الهدف الذي يبدو بلا معنى ـ «العيش من أجل العيش» ـ يتضمن إمكانية اختيار العيش شعريًا[2].

إنه يدعونا إلى احتضان تطلعاتنا إلى الفرح والنشوة، مما يمنحنا شعورًا (وهميًا؟ حقيقيًا؟) بالاتحاد مع سمو لا يُوصف يتجاوزنا.

إنه يفهمنا أن العيش هو إبحار في محيط من عدم اليقين، مع بضع جزر من اليقين ترشدنا وتغذينا. إنه يشجعنا على اتخاذ القرار والتصرف في مواجهة اللايقين، ومعرفة كيفية الوقوف إلى جانب إيروس في معركته ضد ثاناتوس.

إنه يحفزنا على المشاركة في مغامرة البشرية.

---

(1) P. Chamoiseau, La Matière de l'absence, Seuil, 2016.

(2) ربما وُلد الشعر مع الحياة، من استمتاع البكتيريا بالوجود، وتجلى في الزهور، والزينة، والألوان، والتحليق، والمرح، والامتدادات الشهوانية، ثم واجه النثر، والموت، والمأساة.

إنها مغامرة مجنونة تمزج بين السمو والرعب. إنها جزء لا يتجزأ، سواء أكان هامشيًا أم طليعيًا، من مغامرة الكون.

نواصل مغامرتنا داخل المغامرة الكونية، من دون أن نعرف إلى أين تقودنا.

صيف ـ خريف 2016م

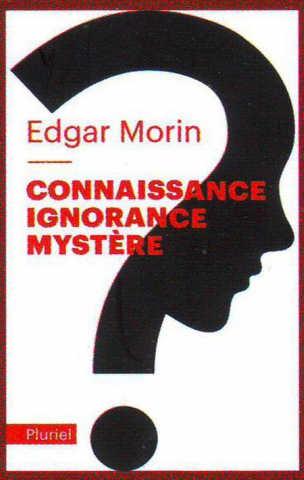

في هذا الكتاب، يأخذنا إدغار موران، الفيلسوف وعالم الاجتماع ومفكر التعقيد، إلى قلب المفارقات التي تُحيط بوجودنا: المعرفة والجهل، النظام والفوضى، المحدود واللامتناهي. منذ عقود وهو يكشف لنا أن العالم لا يُفهم إلا عبر التناقضات، وأن العقل البشري يظل في دوارٍ دائم بين الوضوح والغموض. هنا، في سن السادسة والتسعين، يواصل موران منحنا مفاتيح لفهم مستقبلٍ يتأرجح بين الكارثة والانبهار، داعياً إيانا إلى الإبحار في محيطٍ من اللايقين، حيث لا تنفصل الأسئلة عن الإجابات، ولا يُفصل العلم عن الفلسفة. إنه درس في حدود معرفتنا، وفي قدرة الفكر الإنساني على مواجهة أسرار الكون والحياة والإنسان.

ISBN 978-9-9227494-2-6